الباب الثاني

الفصل الأول

سخرية البشري

عرف العرب السخرية منذ قديم الزمن وقد جاء في كتاب الله العزيز « يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم » كما جاء في لسان العرب « سخر منه وبه سَخْرا وسَخَرا ومَسْخَرا وسُخْرا وسُخرةً وسِخْريا وسُخْريا والسُّخرة الضُّحكة ، ورجل سُخْرة يسخر بالناس (١) وسَخِر من باب طَرِبَ » .

وقد وجد في الأدب العربي كثير من الآثار التي تدل على السخرية والاستهزاء وكان الجاحظ فارس هذا الميدان ، وعنه أخذ البشري أصول هذا الفن . ولكننا قبل أن نتحدث عن هذا الفن عند البشري نحب أن نعرج عليه في المراجع الأفرنجية حتى نستطيع أن نقارن بينه وبين البشري .

السخرية في الفرنسية بمعنى Satire وقد جاء في موسوعة لاروس أن أصل الكلمة مختلف فيه ويقول بعضهم إن كلمة Satire ترجع

(١) لسان العرب — الجزء السادس ١٦ .

إلى Satyre وهم أتباع الإله باخوس إله الخمر عند القدماء وكانوا يسخرون سخرية لاذعة (١) من كل من يلاقونه فى طريقهم . ومن أشهر الكتاب الساخرين فى الأدب الفرنسى كما جاء فى موسوعة الأدب الفرنسى (٢) فولتير وطريقة السخرية عنده أن يوالى ضرباته على خصمه ويحاول جهد الامكان أن يتهرب من الرد عليه ويقول أجرأ الأقوال وإن كان لا يرى حرجا فى إنكارها فيما بعد، فقد أثرت أقواله كما يريد أولا، فإذا أنكرها فلا يقلل ذلك من تأثيرها فى الجمهور وإن كان من شأنه أن يجعل سلطات الرقابة فى حيرة من أمره .

وكان فولتير يقول (اضرب ولكن استر اليد التى تضرب ، وقد يعرفون أنك خصمهم ويحاولون ردك عن اعتقادك ولكنهم لن يستطيعوا أبدا أن يجعلوك ترجع عن اعتقادك) .

وكان فولتير مضطراً إلى سلوك هذا المسلك والتردد فى آرائه لأن ذلك ساعده على إعلان آرائه أولا ولكن هذا الموقف فى الواقع موقف تردد وخيانة ومغالطة .

أما دائرة المعارف الفرنسية العظيمة (La grande Encylopedie) فقد ذكرت فولتير على قمة الساخرين فى القرن الثامن عشر كذلك

---

(١) Larousse Volume 14 P 242.

(٢) Litteratûre Française Volume II P. 105.

وأضافت قائلة إن السخرية نوع من الأدب الليركى (Lyrique) أو الذاتى ولكن فى درجة أدنى. ومن أعظم الساخرين (Rabelais) رابليه وصور عصر النهضة فى جميع مظاهره ونقده نقداً مراً، ومن أشهر نقده نقد الجامعيين والسخرية منهم، وله تأثير قوى فى الفكر الفرنسى بعد عصر النهضة. وكذلك اشتهر من الساخرين (Marot) وسخريته من النفس والمجتمع، ولكنها سخرية عذبة غير مؤلمة(١)

وإذا كان فولتير قد اشتهر فى القرن الثامن عشر بسخريته المريرة فإن القرن السابع عشر امتاز بموليير الذى كان يسخر من المجتمع فى أسلوب فكاهى لذيذ مسلى، وفى الوقت نفسه لاذع له تأثير فى المشاهدين والسامعين وكذلك بوالو (Boileau) وله قصائد فى النقد الأدبى بالشعر ويمتاز بأنه أول من وضع أسس النقد الأدبى. وسخريته سخرية الأديب القوى المعتز بشخصيته وأدبه.

أما فى القرن التاسع عشر فمن أعظم الكتاب الساخرين (Flaubert) فلوبير الذى نظر إلى المجتمع نظرته إلى مأساة بشرية حزينة، وكان يتألم لهذا المجتمع البائس، وكان يصف المجتمع وصفاً واقعياً فشعر بالسخرية منه والازدراء به وصوره كما هو لا يزيد عليه ولا ينقص شيئا. أما فى القرن العشرين فقد ظهر أندريه جيد

---

(١) Encyclopaedia Britannica Volume 20 P. 5.

(André Gide) واندريه موروا (André Maurois) وغيرهما من الكتاب الساخرين الذين سخروا من التقاليـــد البائدة فى المجتمع والأوضاع المقلوبة التى ينبغى الخلاص منها .

هذا فى الأدب الفرنسى، أما فى الأدب الانجليزى، فقد انتشرت ضروب السخرية عند كثير من الأدباء والشعراء . وبعد القرن الثامن عشر فى انجلترا من أحفل القرون فى أدب السخرية وبعد الكاتب الشاعر جون دريدن (John Dryden) من أعظم الكتاب سخرية فى نقد كثير من الأوضاع المعروفة فى ذلك الوقت . ومن أمثلة الهجاء الساخر قصيدة درايدن فى شاعر يدعى (شادويك) وفيها يتخيل شاعراً ينوح على دولة الأدب السخيف ويعرض لنا دريدن هذا الملك باحثاً عن ابن من بين أبنائه ليرث عرشه ويلى أموره من بعده فلا يجد إلا شادويك فهو أقرب الأبناء شبهاً بأبيه وترعرع ونشأ فى بجوحة من البلادة حتى أصبح جديراً بوراثة تاج الأدب السخيف، وقد كان لشكسبير حاسة الكوميديا والسخرية كما كانت له حاسة التراجيديا، وقد يعجب امرىء كيف استطاع أن يجمع بين الطرفين، فمن الحقيقة أن الأيام التى عاش فيها شكسبير على حد تعبير هازلت لم تكن تثير الضحك كالوقت الذى عاش فيه هازلت مثلا وغيره من كتاب النقد، ولكن عبقرية شكسبير كما يرى وليم هازلت كانت

نافذة عبر السنين حتى أنه كان يمزج السخرية بالسرور[1] بينما كنا نجد كاتباً مثل رابليه (Rabelais)[2] يمزج سخريته بالحزن والألم .

أما فى الأدب الأمريكى فقد ولع الأمريكيون ولعاً شديداً بفنون السخرية ويستخدمونها فى حياتهم اليومية ، فى الخان ... والمكتب ... والاذاعة .. والحفلات الموسيقية ، وأعمدة الصحف ..

وقد ظهر فى أمريكا منـــذ عهد قريب كتاب ضخم عن أدب السخرية ألفه أديب أمريكى هو إدجار جونسون ، وقد حلل فيه ماهية السخرية وقيمة السخرية ثم عرض لنا ألواناً مختلفة فى أدب السخرية عرضاً جميلا جذابا .

ومما قاله إدجار جونسون فى هذا الكتاب المفيد الذى أعطى له عنوان (كنز من السخرية) (A treasury of Satire) ليس صحيحا إن السخرية يجب أن يكتنفها الأسى ويطويها الحزن ويشيع فيها العبوس والألم . فأكثر الذين يعالجون أدب السخرية تشيع فى كتاباتهم روح المرح والفكاهة [3] كما أن السخرية فى كل مكان وزمان تهاجم الشر والكبر والرذيلة وكذلك تهاجم التقاليد الاجتماعية البالية التى تحمل بين طياتها الرذائل ، كما تهاجم الطيش والحمق والنزق (٤) .

---

(١) Wit and Humour by Leigh Hunt P. 111.

(٢) Wit and Humour by Leigh Hunt P. 112.

(٣) A treasury of Satire P. 3. Edgar Johnson.

(٤) « « « « P. 5. « «

أما كل فطنة (Wit) فيجب أن تشتمل على فكرتين لا فكرة واحدة والفكرتان يحتاج كل منهما للآخر كما يحتاج الزوج إلى زوجه (١).

وتعتمد السخرية في بعض الأحيان على الكاريكاتور والكاريكاتور نوع من الرسم الساخر وهو عرض المصور للأشخاص بطريقة تستثير الاستخفاف أو السخرية ، وقد تمتد يد الرسام إلى عرض الحيوانات أو الجمادات بالطريقة نفسها زيادة منه في توكيد الجو الكاريكاتوري للصورة، ويستخدم الرسام الكاريكاتوري (المسخ) أساسا لفنه وذلك بإبراز العيوب الجسمية أو العادات النابية لبعض الأشخاص إبرازاً يلفت النظر عما عداه من الملامح الأخرى ، والرسام الكاريكاتوري ككل فنان يكتشف هذا العيب بالسليقة ويؤكده بحيث تختفي إلى جانبه مميزات الرجل الأخرى، والتنافر بين هذا العضو وبين بقية أعضاء الجسم من حيث الأهمية هو الذي يخلق (المفارقة) التي تستثير الضحك (٢) .

وقد ينزع الكاتب الساخر إلى استخدام الأسلوب الكاريكاتوري في شعره ونثره فيمسخ غريمه بالمبالغة في الوصف ، وقد اشتهر الجاحظ وابن الرومي بهذا اللون من الأدب، وكذلك اشتهر البشري بذلك اللون على النحو الذي سنفصله فيما بعد .

والأديب الساخر يهدف في وصفه للناس والأحداث إلى

---

(١) Wit and Humour by Hunt P. 9.

(٢) سيكولوجية الضحك، أحمد عطية الله ص ٢٨٦

استدرار الضحك وقد يكون له من وراء ذلك فلسفة هى نتاج مزاجه الخاص أو تجاربه فى الحياة كأن يرى تقاليد المجتمع سفهاً لا طائل تحته أو يرى مثل الأخلاق رياء واصطناعا ، أو يرى الحياة نفسها غير جديرة بالقدسية التى نحيطها بها (١) ، ومن هنا اتصلت الفكاهة بالأدب أو اتخذت الفكاهة والسخرية فنون الأدب وسيلة للتعبير عن وظيفتها فى الشعر والقصة والمسرحية والمقالة . والسخرية تنقسم إلى أقسام: فهذا شخص يسخر بالناس والحياة والأشياء لأنه ساخط عليها حاقد على موقفها منه ، ويتخذ السخرية متنفسا لما يعتمل فى نفسه من حقد وضغينه . وهذا شخص آخر يسخر لأنه مطبوع على رؤية ما فى الأشياء من تناقض ، وموهوب فى الكشف عن هذه المتناقضات ، فهو لا يحمل لأحد ضغينة ولا تمتلىء نفسه بالأحقاد ولكنه يتسلى بإبراز ما فى هذا الكون من شذوذ وتنافر ولا هدف له إلا الترويح عن نفسه ، وثالث يسخر لا لضعف شخصيته ، ولا حبا للتسلية أو الترويح ، ولكن لأن وراء سخريته هدفا اجتماعيا أو فكريا يريد أن يصل إليه . (٢)

وكان البشرى فى أغلب سخريته من النوع الأخير .

المزاج المصرى والسخرية والفكاهة :

كان البشرى دائما حاضر النكتة ، عذب النفس ، حلو الروح ،

---

(١) سيكولوجية الضحك أحمد عطية الله ص ٢٩٦

(٢) أحمد أمين النقد الادبى ج ٢ ص ٤٠٩

خلقت من معدن الحب وفطرت على سجية الإخاء والوفاء وحسن المعاشرة ، ولكن أميز ميزة كانت تظهر فيه دعابته وفكاهته ، فقد ورث هذه الدعابة وهذه الفكاهة من الطبع المصرى الرقيق والمزاج المصرى المرهف. فقد ذكر كثير من الباحثين فى مقومات الشخصية المصرية أن المصرى لا يميل إلى شىء قدر ميله إلى الفكاهة ، ولا ينزع إلى شىء قدر نزوعه إلى الدعابة ، وفى هذا يقول الدكتور عبد اللطيف حمزه : (ونحن نعرف أن الخلق المصرى كما يمتاز بالحزن العميق ، والاسترسال فى الهموم ، كان يمتاز كذلك بميله إلى المرح ، وبحسن اصطناعه للدعابة والفكاهة ، وهذا الخلق الأخير هو ما قصد اليه بعضهم من (الأثر العكسى) فى طباع المصريين . يريدون بذلك أنه بدلا من أن يغرق المصرى فى همومه وأحزانه ، وتسيطر عليه سحابة من القلق والكآبة ، عمد إلى ترك هذه المظاهر كلها وانصرف إلى المرح والضحك ، يأخذ منها بحظ غير يسير) (١) .

فلعل هذه الفكاهة والدعابة ترجع إذن إلى الأحداث السياسية الخطيرة التى ألمت بمصر فى فترات متعددة من تاريخها ، وتعاقبت أمم كثيرة على البلاد المصرية فحاولت النفوس أن تفرج عن همها وتجلو عن كربها بالاندفاع مع هذا التيار الذى قد يسلمها إلى النسيان . . .

---

(١) الحركة الفكرية فى مصر ، للدكتور عبد اللطيف حمزه ص ١١٧

فلهذا كثر فى الأدب المصرى أدب الدعابة والتفكهة ، ومن المعانى الطريفة التى ذكرت فى هذا الباب فى العصر الفاطمى ما قاله ابن قادوس للرشيد بن الزبير أحد جلساء الملك الصالح بن رزيق وشعرائه وأخو المهذب بن الزبير الشاعر الأديب . وكان الرشيد قد ولى (المطابخ) فكان ذلك سببا لهجاء الشعراء له لأنه كان أسود اللون . . . قبيح المنظر . . . قال ابن قادوس :

يولى على الشىء أشكاله فيصبح هذا لهـــذا أخا
أقام على المطبخ ابن الزبير فولى على المطبخ المطبخا

وقال كذلك :

إن قلت من نار خلقـــت وفقت كل الناس فهما
قلنا صدقت فمن الذى أطفاك حتى صرت فحما ! !

تلك هى صورة من دعابة الشعراء فى العصر الفاطمى ، وإنها لدعابة تمتد إلى أصول الأدب المصرى منذ عصوره الأولى وتشيع فيه حتى عصرنا الحديث .

ويقول الدكتور محمد كامل حسين :

« والمصرى بطبيعته ميـــال إلى الفكاهة والدعابة ، وإذا ذكر فى العراق جماعة أبى نواس ، ففى مصر جماعة محمد بن عاصم

وسعيد بن فاخر قاضي البقر شاعر الاخشيد وأبي هريرة بن أبي العطام وغيرهم) (١) .

فالبشرى إذن كان وارث المزاج المصرى الرقيق الذى يؤثر الفكاهة ويميل إلى الدعابة حتى أصبحت هذه الميزة من أبرز خصائصه الفنية فى الأدب بعدما أضفى عليها الكثير من روحه ومن ذات نفسه فجاءت تنتزع العجب والإعجاب .

طبيعة البشرى الساخرة :

يتكون السلوك الإنسانى من نوعين :

السلوك الفطرى، والسلوك المكتسب، وما السلوك الفطرى إلا مقدار ما جبلت عليه النفس من طبيعة ، ولقد كان البشرى ذا طبيعة ساخرة . أوقل إنه كان على استعداد فطرى للسخرية والضحك. وهذا الاستعداد قوامه أن يكون صاحبه ذا استعداد مزاجى عام، يصبغ تفكيره ويوجهه إلى كل مامن شأنه أن يستثير الضحك ، فمثل هذا الرجل ينظر إلى الحياة من وجهها المرح الفرح ، وهو لذلك يمسخ الحقائق ويفتعل المواقف ويستحدث المفارقات التى تستدر الضحك واستحداث المفارقة يحتاج إلى ذاكرة سخية، وذهن متقد وإحاطة لغوية تمكنه من الغوص إلى المعانى البعيدة والمسميات النادرة .

---

(١) أدب مصر الاسلامية للدكتور كامل حسين ص ٢٣٧ .

ولذلك كان البشرى ضحوكا ، وقد بدا حب الضحك فى نفسه فدفعه إلى السخرية المريرة من الأوضاع السقيمة والتقاليد السخيفة التى توارثها الأبناء عن الآباء .

وقد ذكر فرويد أن اللاشعور يلعب الدور الأكبر فى تندر المتندرين بالمفارقة ، وسرعة الخاطر ، والتلاعب اللفظى ، والتورية والاقتضاب المخل ، وفلتات اللسان ، وهى من العوامل التى تعتمد عليها الفكاهة تعتبر تنفيسا لرغبات الإنسان المكبوتة التى هى حصيلة اللاشعور . ويشبه فرويد العملية العقلية فى الأحلام بالعملية العقلية فى ابتكار الفكاهة فالحلم لايخرج عن كونه مقارنة . تعتمد على الرموز التى تشبه اللغو والتلاعب بالأسماء والمسميات ، فالرجل الذى يسخر من غريمه فيتصوره فى أحلامه فى هيئة حيوان بغيض لا يفترق عن المتندر الذى يستخدم التورية فى السخرية به فيذمه فى صورة مدح (١) .

ومهما يكن من شىء فقد كان البشرى ذا طبيعة ساخرة تميل إلى الفكاهة والتندر ، وقد ظهرت دلائل هذه السخرية واضحة جلية فى كتاباته . وكان البشرى ذا نزعة تفاؤلية تتأثر بناحية الألوان المشرقة من الأشياء ، على العكس من النزعة التشاؤمية التى تستهويها الظلال القاتمة .

---

(١) Freud. wit its relation to the Unconsclous.

منابع السخرية عند البشرى :

نمى البشرى طبيعته الساخرة باطلاعاته الواسعة ، وقراءاته المتصلة ، وقد عرف الأدب العربى السخرية فى مختلف عصوره الأدبية . وإذا كان أدب السخرية يتطلب التصوير الكاريكاتورى ، فقد وجد أدباء قبل البشرى يلجأون إلى هذا اللون من التصوير ، وإلى مسخ أوصاف الرجل بإبراز بعض عيوبه للعيون بحيث تخفى ما فيه من محاسن لشدة مبالغة الهجاء فى تصوير هذه النقائص .

ولذلك اتخذ شعراء العربية من عيوب الخلقة محوراً لسخريتهم فهزأوا من الأنوف الطويلة والأفواه العريضة ، واللحى المسترسلة ، ومن دمامة العجائز وعمى العميان .... واستعملوا من ذلك غريب الأوصاف والتشبيهات . قال المتشنق يهجو بشار بن برد :

ان بشار بن برد ليس أعمى فى سفينة

وهجا أبو دلامة نفسه بقوله :

إذا لبست العمامة قلت قردا وخنزيرا إذا خلع العمامة

وقال ساخر :

وإذا بدا متحدثا فكأنه قرد يقهقه أو عجوز تلطم

وقال ابن الرومى :

يقتر عيسى على نفسه وليس بباق ولا خالد

ولو يستطيع لتقتيره تنفس من منخر واحد !

وأتيح للبشرى أن يطالع كثيرا من المجلات والجرائد الساخرة التى انتشرت فى مصر فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين ، ولاسيما عند الاحتلال البريطانى ، فقد تميزت هذه الفترة بازدهار الصحافة الساخرة وصدور المجلات الفكهة مثل (أبو نضارة) و (التنكيت.. والتبكيت) (١) و (الأستاذ) و (حمارة منيتى) وغير ذلك من المجلات والجرائد التى كانت منتشرة فى تلك الآونة، وكانت تعالج كثيراً من المشاكل الاجتماعية فى أسلوب فكه ساخر وعبارة لاذعة .

وكانت مجلة الكشكول لصاحبها سليمان فوزى من الصحف السياسية التى استخدمت الكاريكاتور استخداما بارعا، كما استخدمت الشعر السياسى والتعليقات الفكهية ، وقد اشترك البشرى فى تحرير هذه المجلة بمقالاته الانتقادية الساخرة .

ولعل هذه الصحافة الهزلية أثرت فى نفس البشرى لأن عينيه تفتحا على الوجود، وأمثال هذه الصحف منتشرة فى كل مكان ،ولقد كانت مقالات المويلحى فى مصباح الشرق وسخريته المريرة من العوامل الفعالة التى أثرت فى أدب البشرى، كما أن أحاديث عيسى بن هشام لمحمد المويلحى قامت بدور خطير فى هذا المضمار للتأثير على عقلية البشرى .

---

(١) تطور الصحافة المصرية للدكتور ابراهيم عبده ص ١٤٨ سنة ١٩٤٤

وكان المويلحي الكبير يمتاز في أسلوبه بالسخرية والاستشهاد بالأشعار والتضمين من القرآن والسجع والترادف الصوتي للعبارة أو التقسيم الموسيقي للألفاظ، وقد يبالغ في ذلك مبالغة سافرة مكشوفة، غير أنه كان ينزع منزع الفلسفة ومحاولة الغوص إلى أعماق النفس البشرية، ويبدو كأنه يشرف على الحياة من أعلى، على العكس من ابنه محمد الذي كان يضطرب في الحياة نفسها وينزع منزع الناقد للمجتمع (١).

وحاول البشري أن يقتفي أثر الكاتبين الكبيرين، ويقول بعض النقاد إن البشري تعلم فن الكاريكاتير من إبراهيم المويلحي، غير أننا لم نعثر حتى الآن على دليل مادي يثبت هذا وإن كان إسماعيل صبري سمع المويلحي يقول :

أأترك لذة الفن اغتباطا وأهجرها وفي المصباح زيت (٢)

وفي هذا البيت الأخير تورية مصرية لاتخفى على القارىء في كلمة مصباح. فمصباح الشرق هو المقصود ! غير أن البشري أخذ من المويلحي اللذع والسخرية إذ كان معروفا بذلك، ومن النوادر التي تروى عنه أنه كان يغيظه أن يقول الامام محمد عبده في مقالاته المؤلفة (مش بطال) فضرب له المويلحي مثلا ينم عن غيظه منه قال : لو أن رب العالمين جلس على عرشه يوم القيامة تحف به الملائكة المقربون، وعن يمين عرشه الأنبياء والمرسلون، ومن ورائهم

---

(١) أدب المقالة الصحفية في مصر الجزء الثالث ص ١١٨

(٢) المرجع السابق

جميع البشر ، ويليهم جميع أنواع المخلوقات من الجن والشياطين والبهائم والوحش والطير . ثم قيل للشيخ محمد عبده ماتقول فى هذا المنظر لمازاد على قوله (مش بطال) (١) .

وقد سجل البشرى إعجابه بالمويلحى الصغير ووصفه بقوله (أستاذى ورئيسى وصديقى العالم الفيلسوف الأديب الكاتب الناقد السيد محمد بك المويلحى رحمه الله ...) (٢)

ولعله تأثر بسخريته فى أحاديث عيسى بن هشام وميله للنكتة ، إذ كان محمد المويلحى يحب النكتة البارعة ويحتفل لها ولم يكن فى الغالب هو المنشىء للنكتة والمبتكر لها ، ولكنها ما تكاد تسقط من فم غيره حتى يتولاها بالتخريج والمط والتوليد والتلوين . فما ينتهى أحد فى ذلك منتهاه (٣) .

ويستطيع القارىء أن يلمس مدى تأثر البشرى بأسلوب محمد المويلحى عند قراءته لحديث عيسى بن هشام ، وتجواله مع البشرى فى مقالاته عن المحاكم والدواوين وما إليها ، واستعماله لبعض الألفاظ العامية على سبيل الرواية (٤) ومن أجل السخرية والتهكم .

ولكننا ينبغى أن نعترف هنا بأن المؤثر الأول أو المحرك الأول

---

(١) أدب المقالة الصحفية فى مصر الجزء الثالث ص ٥٧

(٢) المختار الجزء الاول ص٢٩٣

(٣) المختار الجزء الاول ص ٣٠٧

(٤) حديث عيسى بن هشام ص ٩١ الطبعة الثانية ١٣٣٠ هـ

على حد تعبير أرسطوطاليس كان الجاحظ . وقد كتب « البشرى » نفسه يؤكد هذا القول ومن ذلك قوله :

(أقدر الجاحظ وأستطيع أن أؤكد لك بأنى أتأثر . . . وأرفض صحبته وأن الجانب الفكاهى فيه ليصور لنا مبلغ قدرة الرجل الفائقة على التهكم كلما أراد أن يسخر ، وكلما شاء أن تحز نقداته فى الرقاب [1])

وقد أصاب « البشرى » فى هذا القول عين الحقيقة فقد كان الجاحظ لا يترك الملحة ، ولا تفوته النكتة ، ولو كانت لاذعة ، ويعلو أسلوبه فى رسائل ويبدو لكم بارد ، ولكن حشوه الجد ، وجله هازلة ولكن ملئها الجد ، وكانت الطرافة تتمثل فى أسئلته المبهمة والافتنان يتجلى فى أجوبته المسكتة ، وقد ابتدع الجاحظ فى الأسلوب العربى تلك الطريقة الساحرة التى جاءت فى التربيع والتدوير وقد تحداها الكتاب وتوسعوا خطاه فى أغراضها وهدفها ، ولكنهم طلعوا فلم يلحقوا وطلعوا فلم يسطعوا . لقد وضع الخوارزمى رسالة على منوالها . ووضع أحمد بن فارس على ضوئها رسالة (أصول فن المقامات) وتبعه بديع الزمان وتوسع فيه الحريرى وأنشأ فى مجاراة ابن زيدون ولكن بعدت الثريا عن المتناول .

وليست نقدات « البشرى » فى المرآة وتعرضه للأشكال

---

(١) مجلة المعرفة عدد ١٨ ص ٦٥٤ سنة ١٩٣٢

والأجسام والأحكام إلا تقليداً للجاحظ في هذه الرسالة التي طبقت شهرتها الآفاق .

مظاهر السخرية عند البشري :

تناول البشري في كتاباته كثيراً من الموضوعات الاجتماعية التي تعالج المشاكل القائمة في مصر، وقد أشاع في كتابته روحه الحلوة الساخرة، فأصبحت على مر الأيام أدباً ساخراً ممتازاً يقف في مصاف آداب السخرية في العالم أجمع .

وقد قضى «البشري» فترة طويلة من حياته موظفاً في الحكومة ، وقضى حياته في الوظيفة بين استمرار في الخدمة أو إحالة إلى المعاش، أو انتداب بعقد، فاستطاع خلال هذه الفترة كلها أن يبلو الوظيفة الحكومية وأن يذوق مرها وصابها ، وأن يسخر من الروتين الحكومي والتقاليد والمراسيم الحكومية البالية فقال في الوظيفة :

(فن الوظيفة هذا شرح الله صدرك، وأطال عمرك، ورفع في المناصب قدرك. فن واسع الأطراف، رحب الأكناف، موصول الأصول ، منفصل الفصول ، معقد القواعد ، مبسط الأمثلة ، والشواهد، لا يحذقه الفتى إلا بعد الجهد، وشدة المطاولة وسهر الليالي في التفكير والتدبير، وتمرين الأعضاء في كيفية القعود والقيام . . . . والسكوت والكلام، والدخول والخروج، والهبوط والعروج . . .

والتشييع والاستقبال، والخشوع والاستبسال، والانقباض والتبسط، والرضا والتسخط، أو إرهاف الأنف حتى يشم الروح على أميال ويدرك مدى تحول الجو من حال إلى حال (١) ...)

وليس من شك فى أن هذه الفقرة من المقال تحمل من السخرية الشيء الكثير، وتعطينا صورة واضحة عن الحال الماثلة فى دواوين الحكومة وبين مكاتب الموظفين، وقد زادها التقابل بين الألفاظ قوة فى العبارة، وقوة لإبلاغ الغرض المقصود من السخرية والتهكم.

وقد سخر « البشرى » من المحاكم الشرعيـــة التى عمل فترة من حياته بين جوانبها فاستطاع أن يكتشف الكثير من مخازيها، ويطلع على الكثير من مساوئها، ويعطينا صورة صحيحة صادقة عما يحدث بين جدرانها من آراء عجيبة وأفكار فقهية سخيفة.

وسخر البشرى كذلك من تقاليـــد الخطبة والزواج وإقامة الأفراح كما سخر من تقاليد الفن والغناء، ورسم لنا صورا نقدية طريفة تمس الأشخاص مساً رفيقاً رقيقاً وتتعرض للوجود والملامح والأحجام والأجسام تعرضاً فيه كثير من الدعابة والتفكهة، وفيه كثير من التسلية والتلهية... وفيه قبل هذا كله وبعد هذا كله لون من الجد فى صورة الهزل والصرامة فى صورة الفكاهة.

أنظر إليه وهو يصور براعة الدكتور على ابراهيم فى الطب:

---

(١) المختار ج ٢ ص ٢٤٥

(فلو كانت لغيره تلك الأصابع التي تسرق الكحل من العين لآثر أن يكون نشالا، إذن والله لسل الآلاف، ولأحرز أكثر مما تجدى الجراحة أضعاف الأضعاف، ولما أبق في جيب على كيس، ولا هنيء الناس بكريم ولا نفيس، ولكن قدر فكان، وسبحان من يعطى الخلق للى بلا ودان . . ! ! (١))

فهذه الفقرة تصور خفة يد الدكتور على ابراهيم فى إجراء العمليات الجراحية، ولكن سخريته شاءت إلا أن تعبر عن هذه المهارة بهذا الأسلوب الساخر الذى ضمنه بعض العبارات العامية . وقد لا يعجب هذا الأسلوب بعض المتحمسين للغة العربية والمحافظين على تراث سيبويه ، ولكن الواقع أن « البشرى » لم يعمد إلى هذا الأسلوب جهلا بالعربية، ولا نفورا منها أو حقدا عليها، كما هو الحال عند بعض الثوار على القواعد النحوية والأساليب العربية. إنما عمد إلى ذلك إمعانا فى الظرف، ورغبة فى التفكهة ونزوعا إلى السخرية، وغير خاف أن اللغة العامية ليست شرا كلها، فقد عكف على التأليف فيها الأدباء الأقدمون والمحدثون مثل أبى الحسن حمزة الكسائى المتوفى عام ١٩١ هـ وأبى الحاتم السجستانى صاحب كتاب لحن العامة المتوفى سنة ٢٥٥ هـ وأبى القاسم الحريرى صاحب درة الغواص فى أوهام الخواص والمتوفى سنة ٥١٦ هـ وأحمد باشا تيمور وانيتوليتمان

---

(١) المرآة ص ٦١

ولو بس ماسينيون ونالينو وهارتن وغيرهم من العرب والمستشرقين (١)

فاقتباس البشرى إذن من اللغة العامية ليس اقتباسا من لغة ركيكة بالية، إنما هو اقتباس من لغة لا تزال حية حتى اليوم، وأفنى علماء العرب والمستشرقون والمصريون زهرة حياتهم فى دراستها وكتابة المؤلفات عنها، أضف إلى ذلك أن هذا الاقتباس أضفى على الأسلوب لوناً ساحرا ولكنه يشيع حوله المرح والسرور .

وقد سئل برناردشو ذات يوم :

— ما هى الفكاهة فى نظرك ؟

فقال (هى أن تبعث على الضحك، وأجلها هى التى تستدر دمعة من العين وترسم بسمة على الشفاه . . .)

وقد كانت فكاهة البشرى من هذا النوع، ولا سيما فى سخريته من الأوضاع الاجتماعية، وفى هذا يلتقى البشرى مع برناردشو إلا أن شو كان أعنف من البشرى فى سخريته فقد يتمادى به الأمر حتى لا يفرق بين الجد والمزاح ، ولا بين الجلائل والصغائر ، وينطلق فى دعابته وهزله، أو فى تحطيمه وتهشيمه، لا يميز بين ما يستحق الصيانة والتوقير ، وما يستحق العبث والزراية ، وقد ينساق فى نشوة اللعب البهلوانى فيدخل به إلى المحـــراب ويدوس به على القرابين والأرباب (٢) .

---

(١) مجلة مجمع فؤاد الأول للغة العربية أكتوبر ١٩٣٧ ص ٣٠٠

(١) عباس العقاد مجلة الكتاب نوفمبر ١٩٤٥ ص ١٧

ولعل ذلك يرجع إلى أن شو لم يكن يشعر بالمسئولية في نكاته وقفشاته فكان أبوه يدمن الخمر ولا يحفل بشيء، وإذا أصيب بكارثة أو محنة رفه عن نفسه بالضحك والسخرية، كما أن أمه تركت زوجها وعاشت مع معلمها الموسيقي دون أن تحفل بهموم البيت ودون أن تلقي بالا إلى شئون الزوجية .

لذلك نشأ شو في بيئة مسرفة في التحرر والاستهتار، على العكس من البشري الذي نشأ في بيئة دينية محافظة، وكان أبوه الشيخ سليم البشري شيخا للإسلام مرتين في حياته .

وهكذا شاعت السخرية في أكثر إنتاج شو الأدبي حتى روى أن تولستوي قرأ إحدى مسرحياته فكتب إلى شو يقول :

(يابرناردشو .. لقد كنت عظيما في مسرحيتك ولكن عيبك الوحيد . . هو إسرافك في السخرية والهزل) فرد عليه شو قائلا :

(كيف تريدنا ألا نهزل ونتفكه . . . والدنيا إحدى نكات الله . . .)

ولكن شو لم يكن يستخدم سخرياته وفكاهته للمقاتلة ومهاجمة الخصوم على النحو الذي فعله فولتير قبله بقرنين مثلا، ولم يكن يتخذ النكتة سلاحا يضرب به خصومه ويتلقى الضربات من أولئك الخصوم، ولكنه كان يستخدمها في هدم التقاليد والمعتقدات والأصنام

وكان ينكر فكرة الفن للفن . ويعالج الفن من أجل الإصلاح ، ويرمى به إلى تحقيق رسالة من رسالات الاجتماع .

وإذا كان البشرى قد سخر من المرأة وبهرجتها . . . وصور حالها فى القديم والحديث فقال (ولم يكن التجمل بالمساحيق ومايؤدى مؤداها إلا نادراً جداً وأكثر مايكون ذلك فى الأعراس ونحوها، وكان الافراط فيه والمداومة عليه معيبا . وكانت السيدة التى تلزمه موضع حديث السيدات وإنكارهن ، وكثيراً مايتخذنها موضعاً للأسمار . . . وإن فتاة تفعل هذا لهى حقيقة بإرسال الألسن وذهاب الأقاويل ، وإقفال بيوت الأشراف فى وجهها وانقباض المجالس دونها وتحرجها بغشيانها . . . والآن . . . وبهذه السرعة السريعة لقد تجرد نساء هاتين الطبقتين (العليا . . . والوسطى) وفتياتها من أرديتهما الخارجية جملة ، ونضون الأقنعة فلا قناع البتة ، وقصرن الثياب ، وربما حسرن عن الأذرع ، حتى لقد يبلغ النظر أعلى الكتف وأسفلها جميعاً ، ولست ترى هؤلياء ولاهؤلياء باديات فى الطرق إلا كذلك ، وأما صقل العوارض ودهانها بالمساحيق البيضاء وصبغ الشفاه بالأحمر القانى أو الأحمر الضارب إلى الصفرة ، فلقد أصبح هذا وأمسى من ضرورات السعى فى الطريق ، بل كاد يصبح ويمسى مما تعاب المرأة بتركه وتعير إذا تخلت عنه . . ! ! !)[1] فقد فعل شوكذلك .

---

(١) قطوف ج ٢ ص ٣٠ ؟

ومن السخريات اللاذعة التى ساقها شو على المرأة قوله (إذا كانت المرأة قبيحة فعليها ألا تلوم إلا نفسها فإن المساحيق وجدت لتكون جميع النساء جميلات . . . !) أو قوله (ما أجمل المرأة فى سن الثلاثين ! وخصوصا إذا كانت فى سن الأربعين . . . ! !) . وقوله (إن الرجل الذى يريد أن يكون طول عمره سعيداً مع المرأة كالذى يريد أن يتمتع بالخمر دائما يجب أن يكون فمه مملوءا بها دائما . . . ! !) .

ومن السمات التى تجمع بين شو والبشرى فى السخرية أن كليهما يصور الواقع دون تزويق ولا تنميق، ولا يتحرج فى إعلان رأيه فى جرأة وصراحة، فقد قال شو : إن طريقتى فى المزاح أن أقول الحق الصراح، إنه أعجب فرحة فى هذه الدنيا. وقال فى أجوبته على بعض الأسئلة التى وجهت إليه (إن أسلوبى هو أن أتعب غاية التعب فى استنباط ما ينبغى أن يقال ثم أن أقوله بعد ذلك بأدنى العبارات إلى الاستخفاف . . . .)

كان برنارد شو يشتغل بالمسائل الاجتماعيـــة والدينية والاقتصادية ويعالج الزواج والطلاق وصحة الأطفال، بل هو يتناول البغاء بالدرس والتحليل وله درامات فى التربيـة والطب والأسرة ومستقبل الانسان، كما له مؤلفات عن الحرب والسلام، بل هو يترجم بعض المؤلفات الأجنبية إلى اللغة الانجليزية. فهو رجل يتصل بالحياة الدنيا له نصيب حتى فى الكفاح السياسى، تقرأ مؤلفاته فلا تجد جملة

واحدة من ركشة، ولا هو يعبث بمخاطبة القمر والنجوم، ولا هو يحفظ عبارات شكسبير لكي يستخدمها في إنشائه كما يفعل بعض أدبائنا الأقدمين أو محاكاتها لأنه أديب مادته الخامة هي الحياة وليست الكتب القديمة.

وتلك كانت طبيعة «البشري» في بعض الأحيان ولكنها لم تكن طبيعته دائما ولم تكن وسيلته دائماً إلى النظر في الأمور.

ولم تكن سخرية «البشري» تميل إلى التهريج كما هو الحال عند شو على حد تعبير ونستون تشرشل[1] إنما كانت تتجلى فيها الرزانة ويتمثل فيها الوقار.

فلم يحاول «البشري» مثلا أن يكون مثل أوسكار وايلد في سخريته ودعاباته وخروجه عن وقاره. حقاً كان «البشري» يمزح ويلقي القفشات والنكات على أصحابه في بار اللواء وبار جراسمو وغيرهما من المقاهي والمنتديات ولكن لم يعرف عنه شذوذ ولا خروج عن الوقار.

وقد ظهرت هذه الظاهرة بشكل واضح عند أوسكار وايلد الذي دفعه حبه للسخرية والدعابة إلى ركوب متن الشطط أحياناً فروى أنه دخل مرة حانوت زهار يبيع الزهور فأمر العامل أن يرفع بعض الأزهار من الواجهة فقال له الرجل (سمعاً وطاعة يا سيدي

---

(١) العظماء المعاصرون، الهلال، ونستون تشرشل سبتمبر ١٩٤٧ ص ٧٣

كم تريد منها ؟) فقال أوسكار (كلا فأنا لا أريد منها شيئا وشكراً لك. وما سألتك أن ترفعها من الواجهة إلا لأني أراها كئيبة منهوكة القوى) وخرج أوسكار مرة أخرى في ثياب مشهرة تلفت الأنظار وهو يعلم حق العلم وقع هذه الغرائب عند الناس فسمع رجلا من المارة يقول : هذا هو أوسكار وايلد الأحمق المجنون ! . . . . فالتفت أوسكار إلى رفيقه وقال (عجباً ... ما أسرع ما يصير المرء معروفا في لندن .. !!).

ولكن الواقع أن « البشري » كان أقرب إلى الروح والمزاج الفرنسي منه إلى الروح والمزاج الانجليزي، بل إن بعض المفكرين يقرب شو من الروح الفرنسي، فليس من شك في أن فكاهته وذكاءه وانطلاق ذهنه من قيود العرف والتقاليد يحمل الطابع الفرنسي على عكس الطابع الانجليزي المتزمت وشو يمتاز في أدبه وخلقه بميزة غير انجليزية وهي كراهة الرياء ، ولباب الحياة الانجليزية الرياء ولذلك لا يفتأ ينتقدها . ومما يؤكد ذلك القول أن شو من السلالة الغابية في إيرلندا التي هي من سلالة الغال أسلاف الشعب الفرنسي الحاضر ، ولا ينبغي أن يفهم من هذا أن شو تخلص من الروح الانجليزية المحضة كحب التدين ورغبته في أن يكون عند الانجليز مائة مذهب ويقنع منهم بصلصة واحدة في الطعام لأنه يبالي الدين أكثر مما يبالي الطعام .

مهما يكن من شيء فاني أرى «البشري» يحمل الروح الفرنسية في نقده للتقاليد وسخريته من الأوضاع السقيمة، وتلك ميزة تميز

الفرنسي عن الانجليزي الذي يتمسك تمسكا شديداً بأهداب العرف والتقاليد ويجعل للعادة سلطاناً قوياً عليه في حياته الاجتماعية والسياسية والفكرية .

ويتفق البشري في هذه النزعة مع فولتير المفكر الساخر ، غير أن فولتير كان ينحو نحو الديمقراطية السياسية وهيأ الذهن الأوربي لثورة يتغير بها الوسط من جميع وجوهه ، وقد رأى فولتير أن أفراد الشعب يتفاوتون في الحقوق السياسية منهم النبلاء والكهنة الممتازون ، وفيهم الموالي الذين ننكر عليهم حقوقهم الإنسانية ، فأوقف حياته لتحقيق المساواة بينهم ونجح بعد وفاته باحدى عشرة سنة ، وكانت روح السخرية تشيع في كتاباته من هذه الأوضاع السقيمة السخيفة . أما البشري فقد كان أكثر سخريته منصبا على التقاليد الاجتماعية البالية وخاض غمار السياسة ولكنه لم يكن صاحب مذهب كفولتير .

وقد كتب فولتير كثيراً من الحكم والقصص الساخرة وساق السخرية على لسان الحكيم زادیج . أما البشري فلم تكن سخريته في قول الحكمة ولا في سرد القصة إنما كانت في عرض المثال الساخر وسوق النقد اللاذع . وهو إن لجأ إلى القصة أو الذكرى لا يجعلها طابعاً مميزاً كذلك الطابع الذي عرف به زادیج عند فولتير .

وقد كانت روح المرح تشيع في أخلاق فولتير إلى درجة أن

مدام دى شاتليه إحدى سيدات الصالونات المثقفات فى القرن الثامن عشر كانت تعجب بفولتير وتقول :

(هو رجل ظريف فى كل ناحيـــة . وهو أروع عملية فى جيد فرنسا . . .)

وكان فولتير كثيراً ما يمثل بعض أدوار رواياته وكان مجلسه مليئا بالفكاهة. قالت كاترين امبراطورة روسيا : هو إله المرح

وقال هو عن مرحه وهو يضحك ويضحك (إن لم تبق لنا ضحكاتنا لشنق الناس أنفسهم وويل للفلاسفة الذين لا يستطيعون بالضحك تجاعيدهم . إن العبوس فى نظرى مرض عضال . .)

وتلك كانت طبيعة البشرى فقد كان ضحوك الوجه ، طلق المحيا، لا ينتظم عقد قوم فى ندوة أو مقهى إلا ويكون البشرى روح الابتسام والمرح، وروح الفكاهة الحلوة التى تتجلى على أسارير الحاضرين .

وكان فولتير محدثاً لبقاً (causeur) ويقول عنه روبرتسون : (هو ذكاء خالص من النار واللهيب فيه من الذرات الأثيرية المتناهية مالم يوجد فى مخلوق آخر، وربما كان أكبر نشاط فكرى عرف فى التاريخ) وليس هذا عجيبا . فقد قيل إن فولتير هو القرن الثامن عشر، والقرن الثامن عشر هو فولتير . وأيضا إن إيطاليا كانت لديها النهضة وألمانيا كان لديها الإصلاح وفرنسا كان لديها فولتير .

النهضة والإصلاح ونصف الثورة !

تلك هي آراء الفرنسيين في فولتير ، فهل كان البشري في نظر المصريين مثل فولتير في نظر الفرنسيين ؟

الواقع أن الشهرة التي أتت فولتير أتته من ناحية أنه كان الثائر الأول على الأوضاع السياسية المحكوسة، والمخلص الأول من ربقة القسوة الدينية والسياسية، وقد حاربها وهزمها وتحققت الهزيمة بعد وفاته بإحدى عشرة سنة في الثورة الكبرى . أما البشري فقد أتته الشهرة من ناحية الثورة على التقاليد الاجتماعية البالية، والثورة في الأدب والبلاغة، والنزعة إلى إيجاد الأدب القومي حتى أصبحنا اليوم نرى المجتمع يختلف تمام الاختلاف عن المجتمع الذي قضى البشري فيه شبابه، ونرى الأدب يتخذ الطابع القومي في القصة والمقالة كما هو الحال عند طه حسين وهيكل ومحمود تيمور ونجيب محفوظ ويوسف السباعي وطاهر لاشين وغيرهم . بل لقد قام الأستاذ أمين الخولي بدعوة صريحة جريئة إلى تمصير البلاغة وإلى النظر في أصولها ومقاييسها بمنظار العصر الحديث .

فإذا نحن مينا بين الميدانين اللذين خاض كل من فولتير والبشري غمارهما وجدنا البشري لا يقل أثرا ولا فضلا في مصر عن فولتير في فرنسا، وإن لم يحفظ لنا التاريخ بعد بعض الكلمات المأثورة في شأنه لوفاته منذ سنوات معدودات على العكس من فولتير الذي مات منذ قرنين .

ولا ينبغي أن نختم هذا الفصل دون أن نقارن بين سخرية أديبنا المصري والأديب مارك توين (١٨٣٥ - ١٩١٠) الأمريكي فقد كان كل منهما ساخر الأسلوب، لاذع الحديث، غير أن سخرية مارك كان يعلوها كثير من القتام والعبوس، فقد كان من النوع الذي يقول عنه فولتير: يضحك لكي ينأى عن التفكير في شنق نفسه وقد غلبت على هذا النوع من الناس تلك البلادة التي تثير الاشمئزاز والتي اختص بها ذلك الجنس الانساني الذي حقت عليه اللعنة. ولذلك فهم يضعون فوق وجوههم تلك الأقنعة المضحكة ليخفوا وراءها تلك الدموع التي تنهمر كالغيث الهتون.

فقد ذاق مارك المرفترة طويلة من حياته، إذ نشأ في قرية كان أهلها من فقراء البيض، وهناك رأى العبيد يجلدون، ورأى الرجال يطلق عليهم الرصاص في الشوارع، ومات أبوه وهو في الحادية عشرة من عمره وتركه مريضاً منهوك الأعصاب، فطرد من المدرسة حيث ساقوه ليعمل صبيا في إحدى المطابع، وشهد قبل أن يبلغ العشرين، موت أخت له وأخ حتى خطه الشيب وهو لم يبلغ الثالثة والعشرين وعلى أثر موت أخ آخر من أخوته محترقا بسبب انفجار سفينة في مياه الميسيسبي (١).

لتلك الأسباب وغـــيرها كان مارك توين من المتندرين الساخرين، أولئك الذين يظنون بالناس ظن السوء ويسمون بشياطين الأدب، ولذلك كان يرى أن كل كفاح يقوم به الناس إنما هو نكتة

(١) الثقافة ٦ أكتوبر ١٩٥٢ ص ٢٠.

تافهة ، بل إنما هي قصة غبي أبله وهي لا تدل على شيء . ونحن نحاول أن نعرج إلى جو السماء لنمسك أهداب قوس قزح . وإذا بنا نغرق في بالوعة من البالوعات . .

ويؤثر عن الكاتب الفرنسي أناتول فرانسي أنه قال إن تاريخ الجنس البشري كله يمكن أن يلخص في بضع كلمات (الناس يولدون ثم يشقون ثم يموتون) وقد شمل مارك توين هذا القول بالتنقيح فقال : ـ الناس يولدون ثم يولي بعضهم أشقاء بعض بطريق القسر والغصب ثم يموتون . . . ! ! (١) . . .

فسخرية مارك توين أو صمويل كليمنز (Clemens) لم تكن إلا وليدة أزمات اكتنفته في حياته وعقد نفسية متعددة وقفت في مجرى شعوره ثم وجدت منفسا آخر لما فتسربت من المجرى على هيئة سخرية لاذعة وتهكم مرير .

أما البشري فالمعروف عنه أنه قد ولد في بيت حسب ونسب ولم يكن يشكو الفقر ولا العوز ولا الحاجة . ولم تكتنف حياته سلسلة من المآسي كتلك التي اكتنفت حياة مارك توين . قد يكون البشري فقد بعض أبنائه في حياته وأحيل مراراً إلى المعاش قبل أن يبلغ السن القانونية ولكن كل هذه الأزمات لا يمكن أن نضعها في صف واحد مع أزمات مارك توين .

---

(٢) الثقافة ٦ أكتوبر ١٩٥٢ ص ٢٤ .

ولذلك فنحن لانزعم أن سخرية البشرى نجمت كما زعم توين من هذه الأزمات ، إنما نجمت من النظر الفاحص إلى الأمور . . والانكباب التام على الحياة، والامعان فى النظر إلى التقاليد والأوضاع الاجتماعية والروتين الحكومى، فلم تكن سخرية البشرى سخرية من الحياة ولا من الأحياء ، ولم تكن سخريته رغبة فى الموت والخلاص من الوجود كقول مارك توين : إنما الدنيا دار مجانين ، وإنما الحياة حلم مزعج يتوسط فترتين من الرقاد . رقاد الأجنة فى بطون أمهاتها، ورقاد سكان القبور تحت الصفائح والجنادل ! !

لم تكن سخرية البشرى من هذا النوع إنما كانت تعالج الواقع وتعيش مع المحسوس والملموس، ولا تحاول أن تحلق فى الأجواء السماوية ولا فى النظريات الوجودية .

ولعل سخرية المازنى أشد قرباً إلى ذلك النوع من السخرية عند مارك توين من البشرى، فسخرية المازنى يحاول أن نعينه على أعباء الحياة الثقال، وفى هذا يقول المازنى (ثم إن الفكاهة ميزة أخرى هى إنها من أقوى ما أعانى على احتمال الحيـــاة ومعاناة تكاليفها والنهوض بأعبائها الثقال. فهى ليست هزلا ولا تسلية فارغة، وإنما هى تربية للنفس. والرجل الذى يلقى الحياة بابتسامة المدرك الفاهم، لا الأبله الغافل، خير وأصلح ألف مرة من الذى لايزال يدير عينيه فى جوانبها الحالكة يندب ويبكى ويقول ولو نفع السخط ، فلماذا لانتظر إلى الجانب الوضاء؟ أو لماذا نعمى عنه وهو موجود؟

أى لماذا نفقد القدرة على الاحتفـــاظ بالاتزان أو صحة الوزن للأمور . . . ؟) (١)

ولذلك كان المازنى ضحوكا ساخراً لعوبا شغوفا بأصحاب النكات والمشاكسات وكان يسخر من كل شيء حتى نفسه فى غير مبالاة .

ولقد بلغت به السخرية إلى حد الاستهتار من صوته فى المذياع ووجهه فى المرآة حتى قال ذات يوم يهجو وجهه :

أنظر إلى وجهى هذا اللعين واحمد على وجهك رب الفنون

فسخرية المازنى إذن نتيجة لممارسته الحياة وشكايته من صروفها ومصادفته لأزماتها . فقد كانت حياته كتوين سلسلة متصلة من الكفاح والنضال فى سبيل لقمة العيش ، ولكن هذا لا يمنع قولنا إن المازنى كالبشرى قد استمد سخريته من إطلاعاته وقراءاته كذلك فتأثر بالجاحظ وغيره من الأدباء والظرفاء .

وفى هذا تقول السيدة نعمات فؤاد :

وأسلوبهما بعد هذا متفكه ساخر ضاحك لأنه ينبع من نفسين مستخفتين بالحياة من طول ممارستها والنقد لما رأيا فيها .. والعطف مع هذا على الناس ، ومن ثم نزعا فى نقدهما منزع السخرية عازفين عن الصراحة والجد ، والجاحظ يقول والجد مبغضة والمزح محبة . »(٢)

---

(١) أخبار اليوم ١٧ / ١ ١٩٤٩ ص ١٣ .

(٢) بحث مستخرج من الماجستير . الثقافة ١٥ سبتمبر ١٩٥٢ ص ١٧ .

ولكن المازني كان كالبشري يحب التبسط والفكاهة لأنه جبل عليها وفي هذا يقول نفسه :

«وأنا في العادة أوثر الاحتشام أمام الناس، ولكني حين أكون بين إخواني وخلصائي أطلق لنفسي العنان ولا أبالي ما أقول مادمت أريد أن أقوله أو أفعله ولو وسعني أن أملأ الدنيا سروراً وانبساطا لفعلت فإني عظيم الرثاء للخلق وأحسب أن هذا تعليل ميلي للفكاهة» (١)

ويتفق المازني مع البشري في هذه النزعة فيرى أصدقاء البشري الأحياء أنه كان زهرة مجلسهم، وأنس ندوتهم، وأنه كان يغمرهم بنكاته وقفشاته مدة طويلة حتى يعودوا إلى ديارهم في فترة متأخرة من الليل .

مهما يكن من شيء فقد اتفق المازني مع البشري في السخرية، أما مرد هذه السخرية عند المازني فترجع إلى قسوة الحياة عليه وإلى ممارسته لشئونها واحتراقه بنارها أما مرد هذه السخرية عند البشري فهي النظر في الأحداث والتمعن في الوقائع، والخروج من هذا النظر بابتسامة عريضة ترتسم على الشفاه، أو قهقهة عالية تتصاعد من الأشداق وتنبعث من القلوب . .

وصدق الكاتب الإنجليزي شترتون حين قال :

---

(١) أخبار اليوم ١٧ / ٩ / ١٩٤٩ ص ١٣ .

« إن محبي المزاح والسخرية والمجون هم في قرارة أنفسهم على جانب عظيم من الرزانة ، وهم في الواقع عظماء لأنهم يمرحون لكي يجذبوا إليهم الانتباه والاهتمام . »

وقد قال شو نفسه معترفا :

« إذا لم يضحك الناس مني فانهم لا يستطيعون احتمالي .. ! »

ولقد استطاع الناس أن يتحملوا البشري والمازني كثيراً وأن يجدوا في كتاباتهما لذة ومتعة وفائدة وغناء .

---

obeikandl.com

فن النكتة عند البشرى

عرف الشعب المصرى منذ القدم بحبه للفكاهة وميله إلى النكتة ونزوعه إلى الغناء والموسيقى ، وربما كان سبب ذلك توالى البؤس على مصر عصوراً طويلة ، وجعلت الطبيعة للشعب متنفسا يحب النكتة وكثرة الغناء والموسيقى . ولذلك كانت الطبقة البائسة فى الأمة أكثر الناس ميلا للموسيقى والغناء . يغنون وهم يعملون ويغنون وهم يسيرون (١) .

فالفكاهة إذن وحب النكتة ما هى إلا متنفس من أثقال الحياة ، ولم يرد فى الدين الحنيف ما يفيد أن الفكاهة حرام وأن النكتة من عمل الشيطان ، فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« روحوا القلوب ساعة بعد ساعة . . . فان القلوب إذا كلت عميت . . . »

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه :

« أجموا هذه القلوب والتمسوا لها طرف الحكمة فانها تمل كما تمل الأبدان والنفس مؤثرة للهوى آخذة بالدنيا جانحة إلى اللهو . . . »

---

(١) مجلة علم النفس العدد الثانى ص ١٥٣

obeikandl.com

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك حتى تبدو نواجذه وكان محمد بن سيرين يضحك حتى يسيل لعابه (١).

وقال أردشير بن بابك إن للأذهان كلالا، وللقلوب ملالا ففرقوا بين الحكمتين (٢).

وقد روى صاحب العقد الفريد بعض نوادر وملح عن الرسول: وتمثل بقول النبي: «يدخل عثمان الجنة ضاحكا لأنه كان يضحكني وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليه وهو أرق فوجده يأكل تمرا فقال له: أنا آكل تمرا وأنت أرق؟ فقال إنما آكل من الجانب الآخر.. فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه (٣).

فالعرب إذن لم يكونوا يستكرهون الملح والنوادر، أو يمقتون الفكاهة والنكتة، غير أن هذه النزعة ظهرت بشكل أوضح، وصورة أكمل في الأدب المصري وعند المصريين حتى قيل: لو طافت نكتة على الانجليزي فإنه يضحك منها ثلاث مرات: الأولى عندما يقال له إنه سيسمع نكتة، والثانية عندما يسمعها ولا يفهمها، والثالثة عند ما يفهمها بعد نحو نصف ساعة. أما المصري فهو لا يضحك من أية

---

(١) نهاية الأرب للنويري ج ٤ ص ٢.

(٢) زهر الآداب للقيرواني ص ١٤٠ ج ١.

(٣) العقد الفريد ج ٤ ص ٣٤٦.

نكتة إطلاقا لأنه يعرف كل النكات، بل يكتفي بأن يقول للراوى في سخرية واستخفاف : سمعناها ..!

وهذه مبالغة في حب المصري للنكات واستيعاب ذاكرته لعدد كبير منها وليس في هذا ضرر ولا شر، فقد علمت الطبيعة أن الدنيا لا تخلو من متاعب، وأن الانسان سيلاقي من حياته بعض الشدائد فسلحته بروح المرح والفكاهة، وأغدقت هذه الروح على بعض الشعوب في كرم وسماحة لتكون دواء لدائها وبلسما لشفائها . فالشعب إذا فقد لأى سبب من الأسباب روح المرح والفكاهة فقد فقد علاج مرضه وعاش في بؤسه . فان أنت رأيت فتى أو فتاة عابس الوجه مقطب الجبين يحمل الهموم ... ويتبرم بالحياة، فاعلم أن هناك جرما من رب أسرة أو مشرفا على التعليم قد سلبه أحسن ما في طبيعته وأجمل ما في ملكاته. ويعلل المازني انتشار النكتة عند المصريين للعوامل التالية (١) :

١ — ما اشتهر به المصريون من الذكاء الفطري وحدة الفؤاد وحضور البديهة وسرعة الخاطر .

٢ — ما هم مفطورون عليه من الجلد المدهش والقدرة على التشدد والاحتمال والصبر. ومن أعون الأشياء على الجلد أن تستطيع أن تهون الأمر على نفسك بنكتة ساخرة .

---

(١) المازني الهلال يوليو ١٩٤٧ ص ٥٨

٣ — ان المصرى عاش فى ظل حكم استبدادى غاشم آلافا من السنين. والعسف يورث النفوس مرارة ولا يبعث الناس منه إلا أن يكونوا على حذر وثقة فيدعون حكامهم وولاة أمورهم يفعلون ما يشاؤون على أن يقولوا هم فيه ما يشاؤون .

وقد ساعدت الصالونات الأدبية وبعض المقاهى على شيوع روح المرح والفكاهة لاجتماع الأدباء والظرفاء فيها وتطارح النكتة وتجاذب أطراف الحديث فى المُلَح والنوادر إلى جانب أحاديث الأدب والسياسة والفن .

وكان صالون (البرنسيسة نازلى حليم) أول هو من نوعه فى القرن التاسع عشر لا فى مصر فحسب بل فى الشرق العربى بأسره وكان يجتذب هذا الصالون فحول مصر من رجال السياسة والأدب والدين ، وكان منزلها يقوم خلف سراى عابدين أمام الباب المعروف بباب باريس ، وكان يغص كل مساء بأمثال الشيخ محمد عبده وسعد زغلول وحسين رشدى وقاسم أمين والأمير حيدر فاضل وابراهيم اللقانى وكانوا يتبادلون فيما بينهم الآراء السياسية والأدبية والدينية ويشيعون بينهم كذلك روح المرح والفكاهة ، ومن هذا (الصالون) صدرت دعوة قاسم أمين ، ووضع كتابا عن المرأة كما تمت خطوبة سعد زغلول بالسيدة صفية زغلول. وقل مثل ذلك عن صالون محمد المويلحى .

وكان صالون (الآنسة مى) الواقع بعمارة جريدة الأهرام ينعقد كل مساء بنخبة من خيرة رجال الفن والأدب حيث يتجاذبون الأحاديث فى الفن والأدب والملح والنوادر، كما وجدت فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين مقاه اشتهرت بجمع طائفة طيبة من الأدباء والناشئين يأوون إلى أركانها ويتبادلون النكت والنوادر ومن أشهرها : قهوة الفن الواقعة أمام مسرح رمسيس القديم، وبار الكوزموجراف، وقهوة أثينا وبيرون. واللواء وغيرها من المشارب المنتشرة فى عماد الدين .

فأكثر هذه الصالونات والمقاهى ساعدت على انتشار النكتة وإشاعة روح المرح، كما عمرت بكثير من الأدباء والظرفاء نذكر منهم البابلى سيد ظرفاء عصره، وحسين التزى، وأحمد الملوانى، وحسن الملا، وحسين شفيق المصرى. وإمام العبد وكان «البشرى» ضد البابلى فى طرائفه وسميره ونجيه فى سهراتهما وكانت له طريقته الفذة فى القفش والتنكيت .

وقد قامت الصالونات الأدبية والمقاهى بنفس هذا الدور فى أوربا وعملت على انتشار روح المرح والفكاهة إلى جانب الاهتمام بالأدب والفن، فقد ظهرت المقاهى فى فرنسا فى أوائل القرن السابع عشر وافتتحت فى باريس عام ١٦٨٩ دار أنيقة سميت قهوة (بروكوب) وكان الفيلسوف فولتير من روادها فذاع بعده ارتياد الأدباء المقهى .

وكان فولتير يتبادل فى بروكوب النكات النوادر مع أصحابه وخلانه، كما كان البشرى يفعل ذلك فى قهوة جراسمو فى ميدان الأزهار أو بار اللواء أمام جريدة الأهرام أو غير ذلك من المقاهى والندوات.

فى النكتة والضحك :

يمتاز الأدب الأوربى بوجود روح المرح والفكاهة وانتشار النكتة ، وإن قلت هذه الروح بالنسبة إلى الأدب المصرى فهنالك الفكاهة (Humour) وهنالك الفطنة (Wit) وهنالك النكتة (Jest) وهنالك الملحة (Joke) وقد انتشرت كتب النكت فى انجلترا منذ ثلاثة قرون وظلت منتشرة هناك حتى اليوم وبعض هذه النكت تحمل الطابع الانجليزى الصرف والبعض الآخر أجنبى ولكنه لبس لبوس انجلترا حتى أن أحداً لا يستطيع أن يتطرق إليه الشك فى أن هذه النكت مولودة فى انجلترا (١).

أما الفطنة (Wit) فهى من أصل سكسونى معناها الفهم والمعرفة وأكثر ما تستعمل فى جودة المنادرة وسرعة البديهة والقدرة على إنشاء العبارات المثيرة للضحك وعلى تخيل الحوادث الطريفة الممتعة وقد تستعمل للشخص نفسه .

أما الفكاهة (Humour) فهى من أصل لاتينى معناها العصارة

---

(١) Jests new and old. by. Carew Hazlitt.

التى تفرزها غدد الجسم وقد قال ماكولى فى تعريفه للفطنة (Wit) إنها القدرة على إدراك وجوه شبه بين أشياء لا بد وأن بينها اشتراكا ولكن المستشرق مرجليوث يقول إن تعريف ماكولى (Macaulay) غامض لا يتضح إلا بالشرح والتمثيل ولكن اللغة العربية على غناها وثروتها لا نجد فيها كلمة تنقل هذا التعريف (١) .

وكل هذه الكلمات تكون روح النكتة فى الأدب الانجليزى كما تكون قرامتها روح النكتة فى الآداب الأوربية وقد عرف الأوربيون النكتة تعاريف مختلفة ووضع لها المفكرون والفلاسفة قوانين لتكوينها منها تكثيف اللفظ (Condensation) والمعنى المزدوج (Double Meaning) ونقل (Displacement) والتطبيق المزدوج لنفس المادة (Double Application of the Same Material)

وغير ذلك من القوانين التى فسرها الأستاذ جون ويزدم بجامعة الاسكندرية بمقال له (٢)

وقد قال توماس هوبز الفيلسوف الانجليزى فى سبب الضحك من النكتة : يدعو إلى الضحك شعور الضاحك بتفوقه على موضوع ضحكه كأن يشعر بعظمته أمام حقارة ما يضحك منه ويؤيد هذا التحليل أننا لا نحب أن يضحك الناس منا .

أما سبنسر فقد أرجع الضحك إلى فقد التناسب بين الأعمال

---

(١) Islamic CultureMargoliouth Vol. I P. 522.

(٢) مجلة علم النفس مجلد ٣ ص ٢٣٣

والأشخاص وتتابع الأفكار المتباينة فى الذهن فقال إن سبب الضحك انتقال العقل فجأة من الأمور الكبيرة إلى الصغيرة، أو من الأشياء العظيمة إلى التافهة أو نحو ذلك وأما داروين فقد وسع نطاق هذه النظرية فقال : المضحك هو الغريب المخالف للمعتاد ، ولكن المسألة لا تزال لاتشفى غليلا مع هذا الاصطلاح لأن كثيراً من الأشياء الغريبة التى تطرأ على الانسان لاتضحكه قط ولكنها تحرك فيه إحساسات أخرى ،وأحدث نظرية فى هذا الباب هى نظرية هنرى برجسون الفيلسوف الفرنسى الشهير فالضحك فى اعتقاده يأتى عفواً للغرابة فيه دخل كبير ، ولكن يجب أن تكون من نوع مخصوص كأن تنبعث عن حركة ميكانيكية غير مقصودة تقرب الأحياء من الجوامد فى ذهننا .

البشرى والنكتة :

امتاز البشرى رحمه الله بخفة الروح وعذوبة النفس والميل إلى الفكاهة والمداعبة ورواية النكتة وابتداعها وتلك خصلة كانت تتمثل فى الجاحظ فقد قال صاحب نزهة الالبا (وامتاز الجاحظ بميله إلى التندر والدعابة حتى ليقول ابن أبى داود إنى أثق فى ظرفه) (١) كما حوت كتب الجاحظ ضروبا شتى من الفكاهة والملح فقال ياقوت فى معجمه (كتب الجاحظ مكتوبة طماضروب من الجد والهزل) (٢)

(١) نزهة الالبا ص ٢٥٨

(٢) معجم الادباء ج ١٦ ص ٧٦

وقال الابشيهى متعرضا لظرف الجاحظ : كان الجاحظ رجلا خفيف الظل (١) . . . .

وامتاز البشرى إلى جانب ذلك باستيفائه لشروط المنادر التى تكلم عنها العرب فقد جاء فى جمع الجواهر فى الملح والنوادر للحصرى القيروانى أن من شروط المنادر أن يكون خفيف الاشارة لطيف العبارة وجعل من هذه الشروط أن يكون (ظريفاً رشيقاً لبقا رقيقا غير فدم ولا ثقيل ولا عنيف ولا جهول قد لبس لكل حالة لبوسها وركب لكل آلة أضراسها فطبق المفاصل وأصاب النواكل . . .) (٢)

وكان للبشرى رأى خاص فى تعريف النكتة فهو يقول : عندى أن النكتة على العموم ضرب من التصوير (الكاريكاتورى) أو على الأصح أن التصوير الكاريكاتورى ضرب من النكتة لأن صاحب هذه يملك مالا يملك المصور من الاسترسال فى التصوير والتحليل بالاشتقاق والتوليد فلا يزال يقلب الصور ويلونها ويخرجها واحدة بعد أخرى فى أشكال وأوضاع مختلفة حتى يأتى على جميع المعانى التى يحتملها المقام) (٣)

وهذا التعريف الذى يقوله البشرى جزء من تعريف برجسون للمضحك وهو مضحك الأشكال . فبرجسون يرى أن التشوه فى

---

(١) المتطرف ج ٢ ص ٢٤٢ .

(٢) (جمع الجواهر فى الملح والنوادر) للحصرى القيروانى ص ٦

(٣) المختار ج ٢ ص ١٢٢

الأشكال قد يثير الضحك فى أحوال خاصة وما الكاريكاتور إلا فن المبالغة للاشكال ، غير أن برجسون يقسم التشوه إلى قسمين :

التشوه الذى يضحك والتشوه الذى يبتعد عن ذلك إطلاقا .

وكل تشوه قابل لأن يقلده شخص سليم يمكن أن يصبح مضحكا .

ويضيف برجسون إلى ذلك قوله .

(وههنا نفهم المضحك فى (الكاريكاتور) فالهيئة مهما انتظمت ومهما انسجمت خطوطها ومرنت حركاتها لا يمكن أن يكون التوازن فيها تاما مطلقا ففيها أبدا نذير باعوجاج وإيذان بجمده ، أى فيها تشوه ما كان يمكن أن يعيب الطبيعة والفن (الكاريكاتورى) يقوم على إدراك هذه الحركة التى قد لا تدرك يضخمها ويجعلها مرئية للناس (١) . . .)

وكما يشترط علماء النفس والمفكرون فى مبتدع النكتة شروطا يشترط البشرى كذلك ، فقد حلل علماء النفس الاستعداد العقلى للفكاهة إلى درجتين : الإحساس الفكاهى ، والادراك الفكاهى . والادراك الفكاهى هو تمييز الفرد لعامل من العوامل المثيرة للضحك كتلاعب لفظى فى إجابة متحدث أو شذوذ فى سلوك أحد من الناس . ويعتمد الادراك الفكاهى على جملة عوامل بعضها فطرى كمجال الانتباه والمستوى الذكائى العام ، والبعض يكتسب لتمكن الفرد نفسه من اللغة . أما الإحساس الفكاهى أو (الظرف) فاستعداد الفرد

---

(١) الضحك تأليف هنرى برجسون تعريب سامى الدروبى وعبد الدايم ص ٢٧

المزاجي للتأثر بالعوامل المنفعلة للضحك وهو يصبغ تفكير صاحبه ويوجهه إلى كل ما من شأنه أن يستثير الضحك. أما البشري فيقول في البراعة في النكتة: إنها تحتاج إلى ذكاء لماح وسرعة الخاطر وقوة اللسن، ويعني بها المقدرة على دقة التصوير والتجميل للسان والعلم بأحوال البيئة والزمان والأشخاص وشيء في الجرأة، ويجب ألا تكون على شيء من قلة الحياء؛ وأخيراً لا بد لها من خفة الروح فلا خير في نكتة تجيء على لسان ثقيل.

وقول البشري هذا لا يختلف عن رأي علماء النفس إلا أنه لم يستطع أن يسمي الأشياء بمسمياتها. ومهما يكن من شيء، ففيها جهد حسن وادراك محمود من جانب البشري.

غير أن الأستاذ العقاد لا يرتاح إلى تعريف البشري للنكتة حين يقول:

(وأنت خبير بأن مرد النكتة إلى خلل في القياس المنطقي باهدار إحدى مقدماته أو بتزييفها أو يوصلها بحكم التورية ونحوها بما لا يتصل به في حكم المنطق المستقيم فتخرج النتيجة على غير ما يؤدي إليه العقل لو استقامت مقدمات القياس وهذا الذي يبعث العجب ويثير الضحك والطرب (١)...)

لا يرتاح الأستاذ العقاد لهذا التعريف ويرى أن اشتمال النكتة على خلل في القياس يسقطها ويلحقها بالهذر والهجانة، ويعتقد أن النكتة تضحكنا لأنها تفضح الخلل وتهتك الدعوى الملفقة،

(١) المرآة للبشري المقدمة.

وتطلعنا على سخافة العقول التى لا يستقيم تفكيرها . ولا تطرد حجتها . وضرب الأستاذ العقاد على ذلك مثلا فحكى لنا قصة اجماعة الأزهريين الذين ذهبوا إلى عظيم معروف بالنكتة اللاذعة والحجة الصادعة فطلبوا إليه أن يتوسط فى إرسالهم إلى بعثة إلى أوربا أسوة بطلاب الجامعة فضحك العظيم وقال :

أين نرسلكم ؟ إلى الفانيكان (١) ؟

ثم يستطرد الأستاذ العقاد قائلا إن هذه النكتة تضحكنا لا لأنها تشمل على خلل فى القياس المنطقى ، بل لأنها تقيم الحجة على خلل ذلك القياس .

ولكنى أرى أن النكتة سواء كانت مشتملة على خلل فى القياس أو مقيمة الحجة على خلل ذلك القياس فانها نكتة أولا وقبل كل شىء ولا مدعاة لهذه المجالات المنطقية لأنها تخرج عن دائرة الأدب انما المهم أن النكتة تفيد خللا بين النتائج والمقدمات .

أما صور النكتة عند البشرى فنلخصها فيما يلى (٢) :

أولا : قد تجىء النكتة فى صورة جواب مسكت استنادا إلى حال واقعة أو فى شكل ملاحظة لطيفة .

ثانياً : قد تجىء بالاشتقاق اللفظى أو من تحريف اللفظ من جهته كما روى عن البابلى أنه سمع المغنى يقول (أهل السماح الملاح دول فين أراضيهم ؟) فأجاب من فوره ، (فى البنك العقارى !)

---

(١) ساعات بين الكتب لعباس محمود العقاد ص ١٥٠ ط ١٩٥٠

(٢) المختار ص ١٢٢

ثالثاً : قد تقع النكتة بالمقابلة والطباق فقد اخترع رجل طريقة سهلة لترويق الماء وكان البابلي يستثقل ظله فقال :

بق يا اخواننا الراجل ده يروق الميه ويعكر دمنا ! . .

أما بواعث الضحك في نظر علم النفس فيمكن أن نلخصها فيما يلي (٢) :

١ — التلاعب اللفظي :

(ا) اختصار الفكرة كقول المتفكه :

ويل للمصلين بدلا من ويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون.

(ب) التلاعب اللفظي بالإضافة كقول القائل :

الموظف لا يكون غنيا إلا إذا كان لصا وتعقيب أحدهم :

فلان الموظف من الأثرياء !

(ج) تبديل الكلمات كقول الجـــبن والزيتون بدلا من (التين والزيتون) .

٢ — التلاعب المنطقي :

ومثال ذلك أن ذهب رجل إلى أحد المصارف مع صديق له وطلب مبلغاً من المال فألزمه الصراف أن يحضر ضامناً معروفا

(١) سيكولوجية الضحك ، أحمد عطية الله ص ٧٧

للمصرف فتقدم الرجل صاحبه ولكن المصرف رفض ضمانته لأنه مجهول له فقال الرجل :

ولكن أنا ضامنه !

٣ ـــ سرعة الخاطر :

وقد نشأت من أجل ذلك القافية فى الفكاهة المصرية وتعتمد على حضور البديهة .

٤ ـــ المعارضات :

كاستخدام الأضداد كقولنا : إن وراءه مستقبلا باهراً لا أمامه!

هذا وقد قسم هنرى برجسون الضحك إلى أنواع مختلفة مثل : مضحك الأشكال ، ومضحك الحركات ، ومضحك الظروف ، ومضحك الكلمات ، ومضحك الطباع .

أما قانون تكوين النكتة كما فصله جون ويزدم فيلخص فى التكثيف اللفظى أو الفكرى ويطلق عليه :

(word or thought Condensation) كقول القروى لبائع التذاكر فى محطة السكة الحديد (احنا التلاتة لطوخ !) أو التعبير غير المباشر بالتلميح (Indirect expression with Allusion) أو المعنى المزدوج (Double Meaning) أو التطبيق المزدوج لنفس المادة (Double Application of the same Material) .

ويضرب جون ويزدم لهذا النوع من النكات قصة الرجلين الانجليزى والاسكتلندى حين سأل الثانى الأول عن مكان معين فقال الانجليزى هناك علامة موجودة فاذا لم تستطع القراءة فتسأل الحداد المجاور فضحك الاسكتلندى بعد مدة وقال: ربما كان الحداد فى الخارج !! ... أو النقل ويسمى (١) (Displacement) كأن تقول فقد حماماً بدل من أن تقول أخذ حماماً .

والواقع أن البشرى استخدم فى نكاته بعض نصوص هـــذا القانون إن صح هذا التعبير، وجاراه فى أحكامه دون أن يشعر أن ما يفعله هو ما يدعو إليه علمـــاء النفس أو ما سينصله الدكتور جون ويزدم فيما بعد .

وسنعرض فيما يلى بعض نكات البشرى ثم نحللها على ضوء علم النفس لندرك طبيعتها وتكوينها ...

روى الأستاذ طاهر الطناحى(٢) أن البشرى حدثه ذات يوم فقال إنه كان واقفاً ينتظر الترام فى الزمالك فامتد الانتظار به حتى تبرم بوقوفه، وبينما هو على هذا الحال إذ بسيارة فخمة يسوقها شاب وبجانبه فتاة فأشار رحمه الله إليهما فوقفت السيارة فتقدم منهما وقال : لازمش لحضرتكم عذول !! فضحك « البشرى » كما ضحك الشاب والفتاة وانطلقا بسيارتهما مع الريح تاركين العـــذول يحرقه الانتظار .

---

(١) مجلة علم النفس مجلد ٢ ص ٥٧٨

(٢) مقال للاستاذ الطناحى الهلال ص ٢٣٣ — ١٩٤٣

وهذه النكتة قد جاءت فى صورة ملاحظة طريفة لحادثة واقعة وهى من نوع التكثيف الفكرى (thought condensation) لأن العقل متجه إلى أن الشاب والفتاة محبان فليسا فى حاجة إلى عذول فظهر الشيخ البشرى كعذول لهما . وغير مجرى الفكر إلى إتجاه آخر .

وكان الشيخ « البشرى » يصحب ذات يوم المرحوم على باشا ابراهيم فى سيارته وتوقفت بهما السيارة لخلل طرأ فى أسلاكها الكهربائية وعندئذ هبط منها الشيخ « البشرى » فسأله الدكتور على ابراهيم باشا .

(رايح فين يا شيخ عبد العزيز ؟ ..)

فقال الشيخ :

رايح اركب لى سيارة حسنة السير والسلوك .

وهذه النكتة قد نجحت عن المعنى المزدوج لنفس المادة (سلوك) أو ما يعبر عنه علماء النفس بقولهم : Double meaning على النحو الذى شرحناه .

وذهب الشيخ البشرى يوما لزيارة صديق له فى بيته فقدموا له فنجانا من القهوة لاحظ البشرى أن البن الذى استعمل فيها كان قليلا فرد الفنجان للخادم وهو يقول :

خذ يا بنى القهوة دى أحسن باين طايلها بن !!

وهذا النوع من النكتة يمكن أن نطلق عليه التكثيف الفكرى

لأن المفروض فى فكرة عمل القهوة أن يكون البن أساسا فيها ولكن الخادم قلل كميته إلى درجة أن البن أصبح شيئا طارئا بالنسبة إليها وهذا قلب للفكرة رأساً على عقب .

روى البشرى انه كان فى الترام فقابله لحاد يعرفه فسلم عليه وأقبل يحييه بما جرت به عادة الناس فقال له اللحاد فى رد التحية (احنا والله يا أستاذ فى الخدمة) فقال البشرى : (الله يحفظك) فأجاب اللحاد من فوره (ربنا لا يحرمنا منك)

ويمكن أن نعتبر هذه النكتة من أنواع النقل (Displacement) فى النكات لأن كلمة الخدمة ولا يحرمنا منك خرجت عند اللحاد الذى ينقل المرقى إلى معنى آخر وتغيرت الفكرة تغيراً تاماً بعث على الضحك والسخرية .

هذه بعض نكات البشرى فى ضوء علم النفس الحديث ولقد اكتفينا بهذا القدر لنشرح وجهة نظرنا وهى أن البشرى كان يطلق النكتة دائما استجابة لطبعه أولا وقبل كل شىء دون تعمق فى البحث أو سعى فى سبيل التحليل النفسى ، ونكات البشرى كغيرها من النكات الطريفة تظهر فطنة والأغلب أن يكون مدارها على ظاهر السلوك ويندر أن يستطيع صاحبها التحليق فوق الظاهر أو الغوص إلى الأغوار البعيدة وهى تضحكنا بما فيها من مقابلة بين أمرين أو حالين أو سلوكين مستورين أو مستور وباد أو باديين .

ومهما يكن من رد النكتة عند البشرى فقد كان عبد العزيز حلو النكتة حاضر البديهة سريع الخاطر، وكانت نكاته ذخيرة ممتازة فى الأدب الشعبى إلى جانب أدباء الشعب والعامة ونذكر منهم الشيخ حسن الآلاتى صاحب كتاب مضحك العبوس ورئيس جماعة المضحكخانة كما كانوا يسمونها وكان مقره أمام مسجد السيدة سكينة وعبد الله نديم الخطيب المفوه والوطنى الكبير والزجال الشهير. ومحمد عثمان جلال صاحب العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ وإمام العبد وحاشيته وغير هؤلاء من أدباء المقاهى والشوارع ودكاكين العطارين ممن كانوا يثورون على الاجتماع الفاسد إذا ذاك وعلى الأحكام الجائرة (١):

وكان هناك بعض الأزهريين المغرمين بالتكلف وأدب العامة ويصوغون ألوان الزجل والفكاهة فيه مثل الشيخ محمد النجار العالم الأزهرى المعروف ولم تكن أزهريته تمنعه من التفنن فى هذا الباب.

وقد كان البشرى من هـذا الطراز المتحرر لا تمنعه روحه الأزهرية من قول النكتة أو رواية الفكاهة فى أدبه، على أن أدبه لم يسجل لنا كثيراً من هذه النكات، إنما عاشت نكاته فى صدور المعاصرين من الأصحاب، والرواه من الأصدقاء وامتاز أدبه بروح السخرية والتهكم المرير الذى وضع كتاباته فى مصاف الأدب العالمى الساخر.

---

(١) الهلال. المازنى يوليو ١٩٤٧ ص ٥٨

«البشرى» الأديب المصرى

تزخر مصر بكتاب كثيرين وأدباء عديدين يمثلون مزيجاً عجيباً من الثقافات، وضروباً شتى من العقليات فبعضهم متأثر بالأدب الفرنسى وبعضهم متأثر بالأدب الانجليزى، وبعضهم متأثر بالأدب العربى القديم، ولكن أكثرهم لا يمثلون الأدب المصرى بحال من الأحوال . ولذلك افتقدنا الأدب المصرى والأديب المصرى فى هذه الأيام بحيث يصور الطبيعة المصرية والبيئة المصرية والتقاليد المصرية تصويرا صادقا ناطقا لا يدنو منه الشك ولا تتطرق إليه الريبة ولذلك قال بعض الباحثين : عليكم بيئتكم ! (١)

ولا غرو فى هذا فلكل أمة أدب خاص يرسل على تاريخها نوراً ساطعا تستضىء به جنباته، وتستنير به مناحيه، وتستبين بواسطته شتى الوقائع والظروف والانقلابات التى مرت بتلك الأمة، فالأدب صورة من العصر ومرآة للأمة، ورجع صدى بعيد لما يجيش فى نفسها من أمانى وآمال، وهو الصورة الصادقة لحركة الحياة اليومية

---

(١) فى الأدب المصرى . امين الخولى ص ١٢٤

التي بدونها يصبح التاريخ سردا باطلا لحوادث متشابهة بجانب ما لها من انتهاء . . . .

فنحن نستطيع أن نفهم الثورة الفرنسية مثلا من مطالعة أعمال فولتير وروسو وديدرو ، ونستطيع أن نحس بمقدمات الثورة في القرن السابع عشر لو أننا تناولنا بالبحث والتحليل روايات فولتير وما فيها من تهكم مر وسخرية لاذعة ونقد صارم لذلك العصر وتلك البيئة . ونحن إذا تقدمنا ونظرنا إلى أيامنا هذه ألفينا الأدب هو الذي مهد ويمهد السبيل إلى الاشتراكية والتآخي الانساني وإن تولستوي ودستوفسكي ومكسيم جوركي وبرناردشو وأناتول فرانس ورومان رولان على اختلاف آرائهم وخططهم قد عملوا ويعملون على تهيئة النفس البشرية لقبول فكرة عاطفة الاشتراكية بتخليص تلك النفس من عبء العقائد الدينية المتوارثة والمصطلحات العتيقة والنظم الرجعية البالية . . .

إننا نفتقد الأدب المصري الصحيح الذي يصور تقاليدنا وينقد نظمنا ، ويسجل إحساساتنا ويصور آمالنا وأحلامنا . . ويحمل طابعنا ولغتنا ويكون بمثابة شعار مميز لأمتنا بين آداب العالم جميعا فنخضع ثقافتنا لروح شعبنا ، ونحاول أن نفهمه بها ونحبه كل الحب ونوقن أنه ككل الشعوب له شخصية عميقة مجيدة حقيقة بأن تخلد في العمل الفني المجيد .

فالحديث عن مصر ودراستها والعناية الخاصة بها ولا سيما من الناحية الأدبية ليس حديث القومية يعتمد على العاطفة المهيجة ويحمل بسحر البيان وفتنة القلم ، ولا هو حديث المقدمة يمهد بها من غير حاجة ماسة بل هو حقيقة يجليها بحث علمى الأسلوب ، سليم المقدمات وصفها نقد صحيح لمواصفات مقررة فى تاريخ الأدب لا قوة لها إلا الاشتهار ، ولست من القائلين بأنه يجعل خطأ ما خيرا من صواب لم يشتهر (١) .

فنحن إذن فى حاجة ماسة إلى أدب مصرى يعبر تعبيراً قوياً عن قوميتنا ، ولقد حاول البشرى أن يقوم بدور فى هذا المضمار ، فدعا إلى العناية بالأدب القومى وصوّر كثيراً من تقاليدنا المصرية وعالج أمور القرية المصرية ونقد تقاليد الخطبة والأفراح فأعطانا بهذا كله صورة واضحة عن شعبنا المصرى وعاداتنا .. وعرفنا المصرى

وفى هذا يقول البشرى (لقد تعرف أن الأدب الحق لكل أمة هو الذى يشاكل حضارتها ويكافىء ثقافتها ويوافيها فى جميع أسبابها ويترجم فى صدق ويسر عن عواطفها ، وينفض ما يختلج فى الصدور من ألوان الشعور والإحساس ، والآن نلتمس أدبنا باعتبارنا عربا أو مستعربين نعيش فى مصر مأخوذين بثقافتها القائمة موصولين بتاريخها القديم إننا نلتمس هذا الأدب الذى يوحى به

---

(١) الاستاذ أمين الخولى مجلة كلية الآداب المجلد الثانى مايو ١٩٣٤

إلينا تاريخنا العربي من ناحية، وتاريخنا المصري من الناحية الأخرى. هذا الأدب الذي تلهمنا إياه أخلاقنا وعاداتنا وثقافتنا ويسويه لنفوسنا العيش في وادي النيل . إنا نلتمس هذا الأدب الذي يفيض بما تجيش به عواطفنا ويصدق في الترجمة عما يختلج في نفوسنا ويصور خائل حسنا أكمل تصوير ، ويعبر عنها أصدق تعبير ، وإن شئنا الكلمة الجامعة قلنا إننا نلتمس الأدب القومي فلا نصيب أثره إلا قليلا فيما يخرج لنا من آثار الأدباء والمتأدبين . . ! ! (١)

وهذه الدعوة التي يدعو إليها البشري دعوة صحيحة سليمة لا يعوزها الدليل ولا البرهان ، فالنهضة الأدبية في مصر لم تخرج حتى الآن غير فريقين من الأدباء : فريق المتعصبين للأدب العربي في تفكيره وأسلوبه من كتاب وشعراء مايزالون يستوحون الشعر العربي والنثر العربي في نظم قصيدة عصرية أو كتابة مقال اجتماعي ويتخذون من أمرؤ القيس وطرفه ولبيد وابن المقفع والبديع مثلا عليا في أدبهم ، فيبكون الديار ويقفون على الأطلال والدمن أو يلتزمون السجع ومختلف ألوان البديع . . أما الفريق الآخر فهو فريق الذين ينقلون الثقافة الأوربية ويحاولون بها إلحاقنا بأوربا وليست مصر إلا قطعة من أوربا كما يقولون . فهنالك إذن فريقان : فريق المستعبدين للماضي الذين يحيون بين ربوعه وتحت أطلاله ،

---

(١) المختار ج ١ ص ٧٥

وفريق المدرسين من رجال الجامعات وأضرابهم ومن لف لفهم من الذين يرددون ما قرأوه فى كتب مفكرى أوربا . ونحن بين هذين الفريقين نفتقد شخصيتنا فلا نجدها . نبحث فى أعمالهم عن فكرة مصرية عميـــقة . . عن إحساس مصرى صميم عن صورة مصرية صادقة لما يختلج فى نفوسنا من عواطف ومشاعر وميول فلا نصادف من كل هذا شيئا .

وهذه الدعوة إلى الأدب القومى التى ينادى بها البشرى لها أصول ومقومات . فما هذه الأصول وتلك المقومات ؟

إننا يمكن أن نلخصها فيما يلى :

١ — هذا الأدب لا يكون إلا عربى الشكل والصورة . . مصرى الجوهر والموضوع . . ولذلك كان لا بد لنا أن نبعث الأدب العربى القديم وننقل دواوينه ، ونستظهر روائعه ، ونتروى منه بالقدر الذى ينسجم فى ملكاتنا ، ويقوم ألسنتنا ، ويطبعنا على صحيح البيان .

٢ — نحن فى حاجة لبعث هذا الأدب القومى من مطالعة آداب الغرب وإطالة النظر فيها واستظهار الكثير من روائعها ونقل ما يتهيأ نقله منها على لسان العرب ، لأن ذلك مما يهذب من ثقافتنا وينسجم من ملكاتنا ويرهف من حسنا ويهدينا إلى كثير من الأغراض

التي تستوعبها آداب الغرب في هذا العصر ..

٣ — هذا الأدب الغربي لا يؤدي الغرض المقصود بمطالعته والاصابة منه إلا إذا هذبناه وسوينا من خلقه ، ولونا من صورته حتى يتسق لطباعنا ويوائم مألوف عاداتنا ويستقيم لأذواقنا .

٤ — لا يعيب اللغة أو ينقص من شأنها أن تصيب من بلاغات غيرها على أن نسيغه ونهضمه ونسويه حتى ينتظم في سلكها ويتصل بخلقها ويوسع في مادتها ويضاعف ثروتها (١) .

فالبشري إذن لا يفتأ يدعو إلى إيجاد الأدب القومي والاهتمام بالأدب المصري ، ولكنه لا يكره الاطلاع على أدب الغرب والاكباب على قراءته وتحصيله دون أن ندعه يطغى على شخصياتنا أو يستبد بعقلياتنا فينسينا مصريتنا التي هي أعز شيء لدينا .

هذه هي دعوة البشري التي كان يدافع عنها ويتحمس لها . فهل حققها في كتاباته أم كانت مجـــرد كلام يقال وحديث يروى ثم يدركه الفناء ؟ !

هذا ما سنبحثه في هذا الفصل من الرسالة . .

البشري والقرية المصرية :

يهتم الأدباء الأوربيون اهتماما كبيراً بأدب الريف وقد نشأ

---

(١) المختار ج ١ ص ٨٠

هذا الأدب فى بادىء أمره على يد ثيوقريطس من أدباء الاسكندرية، ثم شاع أثره فى الأدب الأوربى ، ويعد الكاتب الفرنسى اللامع (الفونس دوديه) كاتبا ريفيا ممتازاً كتب رسائله فى سمى القرية وسماها (من طاحونتى) وسجل فيها خواطره وخلجات نفسه ونبضات شعوره ونعى على باريس رياءها الظاهر وأضواءها الخادعة واطمأن إلى الحياة فى القرية بين أحضان الظلال فأعطى لنا بذلك صورة واضحة عن القرية الفرنسية ظل الفرنسيون يستمتعون بقراءتها على مر السنين . وقل مثل ذلك فى الأدب الانجليزى . حيث ظهر أدباء يصورون الريف والحياة فى الريف مثل توماس هاردى وجيمس طومسون وغيرهما .

أما فى أدبنا المصرى فلم يظهر فى أفقه أدباء يهتمون بالقرية المصرية والكتابة عن الريف إلا نفر ضئيل نذكر منهم أديبنا البشرى الذى صوّر القرية المصرية أصدق تصوير ، وعرض لنا وسائل النهوض بها ورفعة شأنها وغير خاف أن مصر بلد زراعى عمادها الزراعة كما أن القرية مأوى كثير من سكانها ومن المؤسف حقا أن القرية المصرية لا تزال فريسة للمرض والمعيشة غير الصحية.

وقد نشرت مجلة تايم (١) مقالا قالت فيه (جاءت الاحصائيات من القرى المصرية الموحشة فى الأسبوع الماضى بما

---

(١) مجلة تايم الامريكية مايو ١٩٥٢

يعد أبلغ من مئات الموضوعات السياسية فى الدلالة على موطن العلة فى وادى النيل . فقد أسفرت الدراسات التى أجرتها مؤسسة (روكفلر) طوال الأربعة أعوام ونصف العام الماضية عن نتيجة محزنة هى أن القرية المصرية أشد الأماكن المسكونة بعدا عن النظافة وأشدها افتقارا إلى الوسائل الصحية . . .)

هذا هو تقرير المجلة الأمريكية عن حالة القرية المصرية وهو تقرير لايخلو من الصحة إن لم يكن صحيحا كله فلا عجب إذن أن نرى البشرى يشمر عن ساعده فى سبيل الدعوة إلى إصلاح القرية المصرية ورفع مستواها قبل ذلك بسنوات .

فقال مصوراً حال الفلاح المصرى (أما الحديث عن الفلاح المصرى فى هذه الأيام فما يروع ويهول فقر لا يعدله فقر ، وبؤس لا يلحقه بؤس . مال غائب ، ومطالب لاتبرح حاضرة ومن أين للمسكين بالمال يوانى به بعض الحاجة أو يدافع المطالب الملحة من كل جانب . هـــذه غلات أرضه مكدسة بين يديه لايجد لها فى أسواق الأرض منصرفا ولا مفيضا . لقد سجنتها الحرب وأبطل حركتها الكساد العام .

هذا شأن ملاك الأرض ومستأجريها . كبارهم وصغارهم فى ذلك بمنزلة سواء فكيف الأكرة والمتكسبين بكد الأبدان ؟ .

أما أولاد الفلاحين فشخوص وأشباح بالية . . تغدو وتروح

فى أعمال بالية تكشف عن الأبدان أكثر مما تستر . وتبدى من اللحوم . أستغفر الله ، بل من العظام والجلود أعظم مما ، تحجب ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم . . .)[1]

فهذا تصوير بديع يستدر مذارف الدموع للفلاحين من أبناء مصر ، وهو تصوير صادق لا يقل روعة عن تصوير الكاتبة الأمريكية المعروفة (بيتشر ستو) للمزارعين المساكين فى رواية (كوخ العم توم) وكان لها أثر كبير فى الاصلاح الاجتماعى فى أمريكا ، بل وفى انجلترا وفرنسا وغيرهما من البلاد الأوربية ، وألهبت الحماسة البالغة فى كل مكان لمناهضة الرقيق ومحو الظلم والاستبداد .

ثم انظر إلى رأى البشرى فى إصلاح القرية المصرية (إنه لا يكفى أن يصدر تشريع بوجوب ردم البرك لعصمة الفلاحين من أذى الأمراض التى يعتريهم بها البعوض ، فإنه إذا قدر وردمت البركة أو البرك حول القرية فسرعان ما يحتفر سكانها بأيديهم غيرها لصنع الآجر أو لحاجة زروعهم إلى التراب يخلط بالسماد ! . ولا يكفى أن يجرى الماء النقى إلى دورهم ليشربوا منه ويتقوا كثيرا من الأمراض والأسقام التى تصيبهم من شرب الماء الكدر الذى كثيرا ما يلوث بألوان المكروبات ، ففى الغالب أنهم سيعدلون عنه إلى النزوى من هذا الماء الكدر إيماناً بأن الماء إذا صفا من الطين

---

(١) قطوف ج ٢ ص ٥

لايجدى على الابدان . إذن لابد من أن يقترن هذا الاصلاح المادى بالاصلاح النفسى الذى يرمى إلى ترسيخ الاعتقاد فى نفس الفلاح والعامل جميعاً بأن هذا الاصلاح الذى يراد له أمر نافع جداً لابد منه ولامحيص عنه لمن يريد الحياة السعيدة.. ولو بمقدار.. الحياة الخالصة من التعاسة والآسقام والأكدار.. ولو بمقدار.)(١)

فدعوة الاصلاح على أساس نفسى هى الدعوة الصحيحة حقاً، الجديرة حقاً ، التى ينبغى أن تأخذ طريقها إلى الوجود. وليس هذا هو رأى البشرى فحسب إنما هو الرأى الصائب لزعماء الاصلاح فى العصر الحديث، فمن أجل ذلك حاولنا محو الأمية، ومن أجل ذلك شننا حربا شعواء على الجهل والفقر والمرض حتى ندفع الفلاح إلى الإيمان النفسى بما ندعوه إليه من ذرائع الاصلاح . ونغشله من الوهدة التى يتردى فيها وندفعه إلى الهزال والموت حتى أن نسبة الوفيات فى مصر تعدت حوالى ٢٦ فى الألف من السكان من أول القرن الحالى مع أنها فى بلاد أخرى قد انخفضت إلى ١٠ فى الألف ومتوسط طول الحياة الذى يرجوه مولود فى مصر يوم ولادته ٢٣ عاما تقريبا بينما هو اليوم فى أمريكا ٦٩ عاما .

إن الاصلاح النفسى هو خير وسيلة لرفع مستوى القرية المصرية وينبغى أن يقوم به المعلمون ورجال الصحة، ففى القرى نجد

---

(١) تطوف ج ١ ص ٩٠٠

أثر مجهود الادارة الصحية محصور فى تسجيل المواليد والوفيات والتطعيم ضد الجدرى ويقوم به حلاق الصحة، ومقاومة الأمراض المعدية بعزل المصابين ومراقبة المخالطين إذا زاد عدد الوفيات فى القرية على المتوسط المقرر (١).

وليس من شك فى أن هذه مهام بسيطة ينبغى أن نغوص إلى أعمق منها ونعالج العلل من الناحيه النفسية لأنها الأساس السليم لكل إصلاح .... والدعامة الأولى لكل نهضة يرجى من ورائها الخير . ومن هنا نشق فى إصلاحنا الاجتماعى وعلاجنا الصحى لما يشكو به الريف . من أدواء وبلاء . . !!

البشرى والتقاليد المصرية :

من مقاييس الحكم الاخلاقى العرف والتقاليد، ولكل أمة عرف خاص بها وتقاليد خاصة بها انحدرت إليها عبر السنين ، من الشيوخ إلى الشباب ، ومن الآباء إلى الأبناء . وإذا خالف أحد هذا العرف وهذه التقاليد استهجنوا عمله وعدوه خروجا عليهم واستهتاراً بهم، فمن الصعب الخروج على التقاليد أو على المألوف من عرف فى الملبس والمأكل ونظام الأفراح . والمآتم وطرق التحية ونحو ذلك. والناس منساقون إلى تنفيذ ما يقضى به العرف وذلك بتأثير

---

(١) من تقرير الدكتور خليل عبد الخالق مجلة الشئون الاجتماعية نوفمبر ٤٤

الرأى العام، وفى أيام سذاجة الناس وبداوتهم لم يكن لهم مقياس يقيسون به العمل إلا العرف والتقاليد، فهم يحكمون على العمل بأنه خير لموافقته للعرف وشر لمخالفته له، ولا يزال كثير من الأمم تتمسك بالعرف والتقاليد فى احتفالاتها الرسمية، بل فى تقاليدها الدستورية، كما هو الحال فى انجلترا، فهنالك قواعد متبعة فى مجلس العموم مردها إلى العادة أيضا، مثال ذلك إخطار مجلس اللوردات مجلس العموم بوجوب انتخاب الرئيس وما يتبع ذلك من الملابس التقليدية التى يرتديها هذا الرئيس والدعوات التى تفتتح بها جلسات البرلمان بعد القاء خطاب العرش للملك والملكة ووريث أو وريثة العرش، ومن القواعد المتبعة كذلك والتى يراعيها مجلس العموم حظر قراءة العضو خطابه الذى يلقيه والمرور بين الرئيس والخطيب. وإذا أعلن الرئيس انفضاض الجلسة ليلا يبادر الحجاب بصوت عال بالقول من الذى يريد الذهاب إلى منزله؟ ويتكرر هذا السؤال بواسطة البوليس فى قصر وستمنستر (١).

وهكذا تأخذ العادة أو العرف والتقاليد مجراها فى تاريخ كل أمة وتتغلغل حتى فى نظمها الدستورية وتقاليدها البرلمانية غير أنها لاتكون فى بعض الأحيان مصيبة فى أحكامها.

ولذلك لما ارتقى الناس تبين لهم أن العرف والتقاليد لايصح

---

(١) السياسة ونظم الحكم للدكتور احمد سويلم العمرى ص ٣٣٩

أن تكون مقياساً للحكم الأخلاقى ، فبعض التقاليد ضارة وغير معقولة ، فوأد البنات كان عرفا لبعض قبائل العرب فى الجاهلية وهو عرف ضارنهاهم الاسلام عنه وأبان مافيه من خطأ . وعند الرومان كان الأب له الحق فى إماتة الأولاد أو إحيائهم! وقل مثل ذلك عن الرق الذى كان فاشيا على مافيه من قسوة وتعسف فى كثير من الأمم القديمة .

فلو أن الناس جروا على مبدأ العرف والتقاليد لم يتقدم العالم عما كان عليه من قديم ، لأنه إنما يتقدم بأولئك الذين يرون خطأ العرف فيجاهرون بمخالفته ، ويدعون قومهم للخروج عليه من أجل ذلك رأينا البشرى أحد زعماء الفكر الذين ثاروا على العادات السقيمة والتقاليد المستهجنة فنقدها نقداً مراً لاذعاً ، وسخر منها سخرية شديدة .

ومن التقاليد المصرية التى سلط عليها البشرى نقداته تقاليد الزواج والأفراح . والحق أن البشرى قد صور هـــذه التقاليد تصويراً صادقاً مبدعاً ينتزع الاعجاب إنتزاعا ، ويجلب اللذة والمتعة إلى القارىء فترتسم على ثغره ابتسامة عريضـــة هى مزيج من السخرية والانشراح .

تقاليد الخطبة والزواج :

في مقال (كيف كان الشبـــاب يزوجون) يستهل البشري أسلوبه من صميم الحياة ويبدأ في شرح نظم الخطبة والزواج ويقول في مقدمته (وترانى في ترجمة هذا الحديث قد عـــبرت بصيغة البناء للمفعول، فقلت : كيف كان الشباب يزوجون . ولم أقل كيف كانوا يتزوجون وإنما كانوا يزوجون لارأى للشاب أو الفتى في متى يتزوج ولا كيف يتزوج ولا بمن يتزوج ، وإنما يزوجه أولياؤه فيتزوج والله يحب المحسنين . .) (١)

فانظر إلى تلك السخرية المريرة التي يسلطها البشري على تلك التقاليد حتى حرم الشباب والشواب من الإرادة والعزم والتصميم وانظر إلى استعماله الطريف لأدوات الاستفهام وعبارته التي زادها التكرار جمالا ،وإلى تضمينه واقتباسه الذي بلغ الحد في الطرافة والرقة وعذوبة الطبع ورقة المقال .

ثم تأمل البشري وهو ينقد نظام الخطبة فيقول (٢) :

(وفي النهاية سيرضى الأب بتزويج ابنه وأنفه في السحاب أو أنفه في التراب ! وسرعان ماتذكى الأم الخاطبات محترفات أو

---

(١) قطوف ج ٢ ص ٥١

(٢) قطوف ج ٢ ص ٥٣

صديقات فى التماس العروسة الحلوة فى بيوت الأكفاء حتى إذا عدن إليها بالخبر أرسلت إلى أم العروس من تعين معها موعدا لرؤية فتاتها . وفى هذا الموعد تمضى الأم وبنتها المتزوجة وأختها وقد تستصحب بعض جاراتها من الصاحبات والواليات وقد أخذن زينتهن وتحلين بأغلى حليهن وأضفين عليهم برود الحبر فاذا لم يكن لهن شيء من ذلك استعرنه من بعض الصديقات المترفات(١).

ولا تزال هذه التقاليد موجودة حتى اليوم فى أكثر الأسر المصرية وإن اتخذت طابع العصر الحديث فى الملابس والزينة، غير أنها إنحت فى كثير من الأسر المصرية كذلك ، ولا سيما تلك التى نالت حظا من المدنية الأوربية ، وسهل الاختلاط فيها بين الشاب والفتى حيث يقرران مصير الخطبة بنفسيهما قبل أن تصل إلى أهلهما وتعلن رسمياً فى محيط العائلة والأصدقاء .

ولا أعرف أسلوبا يصور الواقع تصويراً صادقا فلم يترك صغيرة ولا كبيرة، ولم يدع نأمة ولا نهمة، ولم يذر لفتة ولا إشارة مثل تصوير البشرى للعروس وقد أقبلت يوم الخطبة .

يتلقى أهل البيت الواردات بأحسن مظاهر التأهيل والترحيب وقد سبقوا فنظفوا الدار، وأحسنوا تنفيض الأثاث، ودفعوا فتاتهم إلى الحمام فأحسنوا جلاءها، وصقلوا عارضيها، وقلموا أظافرها، ورتلوا

---

(١) قطوف ج ٢ ص ٥٤

شعر رأسها ومشطاوه ، ونضدوا على الجبين مقدمه وضفروا سائره ضفيرتين ، ثم ألبسوها أجمل الثياب ، وحلوها ما أصابوا من لبات وأساور وأقراط وخواتم، ويبدأ بتقديم الشربات تطوف به امرأة أو شابة أو فتاة من فتيات الدار أو خادم من خدمة البيت أو من خدم الجار، ثم لا تزال الأنظار تطلع إلى ناحية الباب ترقباً لطلعة العروس ثم إذا هى مقبلة تمشى على استحياء وقد أسبلت جفنيها وهى تحمل فنجان القهوة تتقدم إلى السيدة الكبيرة أولا ثم تعود بالثانى إلى الثانية وهكذا والأنظار تتناهبها من كل جانب! هذه تتوسم وجهها وهـــذه تتفقد عنقها وصدرها، وأخرى تسرح النظر فى شعرها ورابعة تلاحظ خطوها لعل فيها ظلعا أو شكا . لا يدعن فى جسمها رقعة إلا أوسعنها تفقدا وتصفحا وتأملا ولا يفوتهم مع هذا أن يلاحظن مبلغ مهارتها فى حمل فنجان القهوة وكان كما نعلم يعتمد على ظرف رقيق القاعدة فإذا بلغته ولم تسل منه على إمتلائه قطرة كان دليلا على المهارة وحسن الخدمة أى دليل . . . (١)

ولست أشك فى أنك أعجبت معى بهذا الوصف المتقن البديع الذى يلوح أمام العين كأنه شريط سينمائى بديع قد أحكمت لقطاته وأحسن تصويره . وتأملت سخرية مريرة تكمن وراء هذا الوصف حتى دفعت النساء أن يلاحظن العروس وهى تحمل فنجان القهوة

---

(١) قطوف ج ٢ ص ٥٥

ويراقبنها فى حركاتها وسكناتها وجميع خطواتها ويترقبن كل هفوة تصدر عنها ولو كانت انسياق قطرة من الفنجان . . ! !

وقد يكون هذا شيئاً عجيباً ، ولكن الأعجب منه ماذكره البشرى بعد ذلك ساخرا (ولربما رجعن إلى بعض من وردن لإعادة النظر ، أو على الأصح لإعادة الفحص والتنقيب والإمعان فى النظر والتقليب . ما يرى أولياء الفتاة بذلك بأسا ولا يجدون فى أنفسهم منهم حرجا . . .) [1] ! !

ويظل البشرى يسرد فى حديثه الشهى الشجى - إن صح هذا التعبير - حتى تخطب الفتاة إلى الأم أولا فإذا اتفقت الأمان أم العروس وأم العريس على المهر وإلا صار الأمر إلى الأبوين ومن اليهما من الأولياء ، فإذا لم يبق موضع لخلاف فى هذه الناحية قرأ الجماعة فاتحة الكتاب فى خفوت تبركا واستكمالا لفضل الله العظيم ! !

وقد عقد البشرى فصلا آخر عن الزواج كذلك خصصه للحديث عن الأعراس ، وقد كانت الأفراح منتشرة فى القاهرة وأنحاء القطر بسبب الرخاء والرغد فكان القوم يتلمسون المناسبات لإقامة الافراح يحييها كبار المطربين ، وكان الدخول اليها مباحا لمحبى السماع وبخاصة المقربين من المطرب ومنهم سادة أجلاء وأثرياء وكان للشباب نصيب موفور من حضور تلك الحفلات وقليلا

---

(١) قطوف ج ٢ ص ٥٦

ما كان يعلن عن حفلات الزواج فى الصحف ، اللهم إلا حفلات الأثرياء والأعيان . أما بقية الأفراح فكان مصدر الاعلان عنها باعة اللب والمطيباتية الذين كان لديهم أخبار السهرات ومن بها من المطربين، وكان لحفلات الأفراح عند العامة تقاليد أخرى، فقد كان يسبق حفلة الزفاف إحياء ليال موسيقية عرفت (بالفشم) [1] يحييها «الصهبجية» وهم طوائف من هواة الموسيقى أجادوا الفن وحفظوا التواشيح والبشارف ، واشتهرت هذه الفرقة بأسماء رؤسائها حيث كان يعرف برئيس الجوق، ومنهم محمد الخضرى القهوجى وحسين الموجى وابراهيم السطوحى وشحاتة الحلوانى وعبد الحميد الشباسى ومحمد البوشى .

وقد صور لنا البشرى هذه الأعراس كعادته تصويراً صادقا ممتعا ، ومن أعجب ماقرأت له فى هذا الصدد (زفة الجهاز) :

(وتسير « زفة » الجهاز من بيت العروس إلى بيت العريس تتقدمها الموسيقى ومن ورائها حملة التحف والآنية الثمينة باسطين تحتها أيديهم فهذا يحمل ديباجة من الحرير موشاة بأسلاك الذهب والفضة وهذا يحمل طشتاً وأبريقاً من خالص الفضة أو من النحاس المموه بالذهب والفضة الخ . . .

---

(١) ٧٥ سنة من تاريخ مصر على صفحات الأهرام ١٩٥٠ ص ٨٧

ثم يلى هؤلاء رتل من (عربات الكارو) لا يدرك الطرف آخره قد بسط الجهاز عليها بسطاً وسط فوقها مطا فهذه حشية (مرتبة) قد خص بها مركبة، وهذه خمس وسائد قد أفرد لها عربة وقائد وهذا (كنسول) عليه مرآة وقد قصرت العربية عليه دون سواه، وهذا نضد (ترابيزة) قد شجر بالزهور .. وهذا (دولاب) قدت أبوابه من البلور، ولا تزال هذه العربات تجوز بك وهى فى كلاءة الأحراس حتى يختم الموكب بفضل الله بعربة النحاس وكان فى عربتين كفاية وفى ثلاث فضل ولكن لا تنسى أن للتباهى حكمة وللتكاثر غرمه وغنمه . . .) (١)

فانظر أى تصوير للتقـــاليد المصرية أبدعه البشرى، وتأمل أى سخرية مريرة تكمن وراء هذا التصوير وتنطق بين السطور .

تقاليد الفن فى مصر :

ومن الموضوعات التى تناولها البشرى فى كتابته كذلك وتدل دلالة واضحة على سمات الأدب المصرى موضوع تقاليد الفن فى مصر، وقد كتب البشرى مقالات متعددة عن الفن والفنانين وبلاغة التلحين والموسيقى المصرية، ومن الرجال الذين ينبغى أن يذكروا فى رأيه الشيخ سلامة حجازى ومحمد العقاد والشيخ سيد درويش ولقد

---

(١) قطوف ج ٢ ص ٦٠

كان الشيخ سلامة حجازى ربعة، قسيم الوجه، حلو الصوت ناصعه، وكان صوته إلى هذا قويا يرتفع فى غير كلفة إلى أقصى ما ترتفع إليه الأصوات لا يختل ولا ينشز، ولا ينبو ولا يتسلخ، ولا يزداد على هذا إلا جلجلة وحلاوة، وقد استحدث فى فنون الغنـــاء جديدا وهو طريقة إنشاده القصائد التى كان ينظمها له مؤلفو القصص التمثيلية ومعربوها، وكانت طريقة خاصة لا هى تجرى على طريقة (الموشحة) ولا الدور ولا الموالى ولا الإنشاد على حلق الذكر ولا الأذان ولا ترتيل القرآن . وكانت تلاحين الشيخ سلامة ترجعها حناجر الشباب فى كل مكان (١) .

أما العقاد فكان غير مدافع ولا مشارك أقدر رجل وأبدعه ضرباً على القانون من نحو ستين سنة خلت إلى اليوم الذى قبض فيه . أما الشيخ سيد درويش فقد كان سيد الملحنين وخطا بالموسيقى المصرية خطوة موفقة نحو الموسيقى الغربية، ونقول خطوة موفقة لأنه كان حاذقا لبقاً لم يصك جديدة الاسماع ولم ينشز طريقه على الطباع (٢).

وكان فن هـــذا الرجل فوق ماله من المقدرة القادرة على الاقتباس والابتكار يمتاز بخلال أربع، أولاها القوة، فلا حظ فى تلاحينه للتفكك ولا للانخذال . وثانيتها البراعة فى التصرف فهو يتنقل بسامعه من فن إلى فن ، ويتحول به من نغم إلى نغم فى اتساق وانسجام كأنه يتنزه فى روضة نسقت أغصانها يد بستانى صناع

---

(١) قطوف ج ٢ ص ٩٠

(٢) المختار ج ٢ ص ٨٨

وثالثها شيوع الطرب فى تلاحينه، اما رابعة هذه الخلال فهى الذوق والذوق البارع النافذ (١).

هؤلاء الثلاثة كانوا أعلام الفن فى رأيه بعد عبده الحمولى وقد أضاف إليهم فناناً آخر ولكنه من نوع خاص، ألا وهو الشيخ محمد ندا الذى يقول عنه :

(لم يكن صوت الشيخ ندا حلواً بالمعنى الذى يدرك من أصوات مثل المرحومين الشيخ يوسف المنيلاوى وعبد الحى افندى حلمى، ولا من مثل صوت الآنسة أم كلثوم وصالح افندى عبد الحى فقد كان قوياً شديد القوة، يرتفع إلى ما تنقطع دونه علائق غيره من الأصوات، وكان مع هذا عريضاً بعيد العرض حتى إذا جلجل وانصقل صار أشد فى وضوحه وبعد عرضه بصفحة الأفق ساعة ينصدع عمود الصباح) (٢).

فالبشرى إذن صاحب ذوق فنى ممتاز فى الموسيقى والغناء. ولذلك لم يكن عجيبا أن يثور البشرى على تقاليد الفن فى مصر وعلى الموسيقى الآلية، وعندنا منها النحاسية والطبل البلدى والنقارية أو النقرزان وكانوا ينقرون عليه فوق ظهور الجمال بين يدى موكب العروس، كما لم يكن عجيبا أن يسخر من غناء الصبية، وهذا خاص بجماعات الحشاشين يوقعونه فى مقدمات الأعراس ؟ وأن يثور على التلحين الرخيص والموسيقى الرخيصة

---

(١) المختار ج ٢ ص ١٠١

(٢) المختار ج ٢ ص ١٠٩

والفن الرخيص والتحزن والتفجع فى هذه التلاحين أو التميع وشيوع التخنيث (١) .

بل إن البشرى تخطى الغناء والموسيقى إلى فن تلاوة القرآن وعجب من التقليد العجيب الذى توارثه القراء فى تلاوتهم (فتقد هو القراء فى مصر لا يبدأون قراءتهم إلا من البياتى وبه دائماً يختمون وكذلك تسمع القرآن عن طريق الراديو من المشايخ العظام محمد رفعت وعلى محمود وعبد الفتاح الشعشاعى ومحمد الصيفى وطه الفشنى وغيرهم من مشاهير المرتلين ، على أنى لا أدرى من أين جاء مصر هذا التقليد ولا متى كان مهبطه من الزمان القريب أو البعيد) (٢) .

وقد صور البشرى فى الموسيقى الصراع بين القديم والحديث وكيف راح بعض الموسيقيين المصريين يحاكون الموسيقى الغربية التى يسمعونها هنا وهناك ، ولا علم لأكثرهم الكثير بما تنكىء عليه هذه الموسيقى الافرنجية من القواعد والأصول .

***

تلك هى بعض نقدات البشرى للفن المصرى ، وتلك هى بعض آراء البشرى فى أقطاب وأعلام الفن المصرى وقد عالج على ضوئها تقاليد الفن فى مصر حتى اعتبر أدبه أدباً مصرياً صحيحاً ، ومرآة مجلوة ، تتراءى عليها الحياة الاجتماعية بمظاهرها المختلفة ، وضروبها المتباينة فى وادى النيل .

---

(١) قطوف ج ٢ ص ١١٧

(٢) قطوف ج ٢ ص ٩٧

أسلوب البشرى

يقول أرنولد بنت (Arnold Benétte) إن الأسلوب هو واسطة التفاهم بين الكاتب والقارىء ، وليس معرضاً للجمل والألفاظ المنتقاة ، والأسلوب الواضح المفهوم هو الأسلوب الصحيح ، وليست البراعة فى رص الكلمات والجمل ذات الألوان الكثيرة وإنما البراعة فى اختيار الألفاظ التى تؤهل الكاتب أن يعبر بوضوح عما يريد . أما الأسلوب الذى يقف أمام القارىء عاجزا عن حل معمياته فهو برهان على ارتباك عقل الكاتب وتشويش أفكاره وعدم ادراكه حقيقة مايريد . . . .

والأسلوب ينم عن شخصية الكاتب ويدل على طبيعته وروحه ولذلك قال الفرنسيون :

الأسلوب من الرجل نفسه (Le style de l'homme même)

كما قال الفرنسيون كذلك الاسلوب هو الرجل

Le style c'est l'homme.

تلك حقائق نحب أن نجلوها قبل الحديث عن أسلوب البشرى

والناس أحد اثنين : رجل ذو طبيعة فعالة (مؤثرة) (Passive)، أو رجل ذو طبيعة منفعلة (متأثرة) (Active) والطراز الأول من الناس يحملون فى نفوسهم صورة الذكر وتسمى (Animus)[1] بعكس الطراز الآخر فإنهم يحملون صورة الانثى (Anima) فى روحهم، والطراز أو الطابع المذكر (Masculine type) يتميز عادة بالقدرة على مراجعة النفس وحب التسلط والقوة وطلب الحياة والمقام والتطبع بالطابع الاجتماعى (Sociable) والاختلاط بأنماط مختلفة من الناس واتخاذ المظهر المعروف فى أوربا (برجال الصالونات) أما الطابع المؤنث (Feminine type) من الرجال فيتميزون بقوة الإحساس وزخور المشاعر والجرى وراء المثاليات والخياليات . وقد كان البشرى مزيجاً من هذين الطرازين من الناس فتبدى أثر ذلك فى أسلوبه الذى هو عبارة عن شخصيته وقطعة من نفسه .

ويقسم النقاد الأسلوب [2] إلى ثلاثة عناصر : الأفكار ، والصور ، والعبارات ، وسنحاول أن نتحدث عن هذه العناصر الثلاثة عند البشرى :

---

(١) Hollander : Mechanism of Thought.

(٢) الأسلوب للاستاذ أحمد الشايب ص ٤٥

كان البشرى يحرص حرصاً شديداً على أداء الفكرة وصوغ الخيال ولا يسمح بكلمة أو عبارة هى أقل أو أكبر من فكرته ويرفض الاستعارات القبيحة ، أو الكنايات الغامضة أو التعليلات الرديئة . وقد كانت أفكار البشرى تترى عليه فى كل موضوع ، تترى عليه فى الحرب والأدب والهجرة والطفولة المشردة والموسيقى والغناء والتلحين والترتيل وغيرها. مثله فى ذلك كمثل الجاحظ ولكن على هيئة مصغرة ، فقد كانت كتب الجاحظ على حد تعبير ياقوت فى معجمه (١) رياضا زاهرة ، ورسائل مثمرة ، وكانت أفكار البشرى منتزعة من صميم الواقع ومن معين الحياة الاجتماعية المعاصرة مثال ذلك أن البشرى شن حملة شعواء على الوظيفة الحكومية والروتين الحكومى لأنه كابد مرارتها وقد مات وهو موظف فى الحكومة كما مات الرافعى فكان لكل منهما عمل بالليل وعمل بالنهار. وشتان بين عمل وعمل ، وأكثر أهل الأدب فى مصر موظفون فى الحكومة ، ذلك لأن حتى الأديب مضيع ، فليس له رزق مكفول إلا أن يكون له فى الحكومة وظيفة ، على أن البشرى استطاع أن يحدد شخصيته الأدبية ويفرق بينها وبين شخصية الموظف المأمور المطيع الذى

---

(١) معجم الأدباء ياقوت ١٦ ص ٩٨

يرى له الرأى ويراد له ولا يريد فخرجت أفكاره حرة طليقة .

كان البشرى واقعيا فى أفكاره (Realist)وتلك ميزة اتفق فيها مع الجاحظ ، فكلاهما كان لا يداجى ولا ينافق ، بل يصف الأشياء كما هى دون تأثم ودون تحرج .

وكانت أفكار البشرى تميل دائما إلى التجديد ،فقد كتب فصولا طويلة فى الأدب بين القديم والحديث، والموسيقى بين العهد الماضى والحاضر، كما كتب فى الأدب القـــومى ودعا إلى الاهتمام به والأخذ بناصره .

وكانت أفكار البشرى عجيبة مبتكرة، كقوله أحب أولادى وأكرههم واختتام المقال بقوله (إننى لا أكره ولدى كل هذا الكره إلا لأننى أحبهم كل هذا الحب) (١) .

هذا عن أفكار البشرى العامة ، أما عن فكرة العبارة فقد كان البشرى يكثر من المترادفات لتوضيحها ، ويطيل فى الجمل لجلائها ويختار لها الألفاظ المناسبة المتناسقة .

---

(١) قطوف جـ٢ ص ١١٧

الصور (Literary Forms) :[1]

قد تكون صور الأسلوب مبتكرة كل الابتكار وقد تكون قديمة ولكن الكاتب أوضحها وزينها وزاد زخرفها ، وقد تكون منتزعة من كاتب آخر نصاً وروحا .

وامتاز البشرى بهذه الألوان الثلاثة من الصور فى أسلوبه ، فبعضها قديم أصلا ، وبعضها قديم استحدث ، والآخر جديد مستطرف ، أما القديم فأكثره من الجاحظ والمويلحى ، ورده ترديداً أو زاد عليه قليلا ، أما الجديد فمن بنات أفكاره وإبداع صوره ولوحاته .

واستمد البشرى فى مقاله (بين الأدب والحرب) مثلا كثيراً من الصور القديمة فى الحروب نثراً وشعراً وبين فضل الجهاد والصبر على الشدائد وأنكر الفرار والذعر . وكانت هذه الصور تربط البشرى بالقدماء ربطاً وثيقاً . أما فى مقاله (اسعفوا التاريخ) مثلا فقد جمع بين القديم والحديث ، وعرض لنا صورة المجتمع منذ سنوات وزاد عليه صورة المجتمع فى العصر الحاضر ، فخرجت من بين يديه صورة جديدة تنتزع الإعجاب حقا . أما فى مقاله (فى التليفون) فقد أتى بشىء جديد مستطرف أوجبته المدنية الحديثة وفرضته فرضاً على الناس .

---

(١) أصول النقد الأدبى ، أحمد الشايب ص ٢٤١ ط ٢ سنة ١٩٤٢

وجملة القول إن صور البشرى بشتى صنوفها ومختلف ضروبها كانت تدل على مهارة فنية ممتازة، وذوق فنى سليم، وطبع صاف رقيق، وإذا كان مقياس الصورة الأدبية هو قدرتها على نقل الفكرة والعاطفة بأمانة ودقة (١) .

فقد استطاع البشرى أن يصل إلى ذلك .

العبارات :

يقول قدامة بن جعفر (وأما البيان بالقول فهو العبارة وقد قلنا أنها تختلف باختلاف اللغات وإن كانت الأشياء المبنية عنها غير مختلفة فى ذواتها وإن منه ظاهراً ومنه باطنا، وإن الظاهر منه غير محتاج إلى التفسير وإن الباطن منه محتاج إلى التفسير وهو الذى يتوصل اليه بالقياس والنظر والاستدلال والخبر) . (٢)

وكان أسلوب البشرى واضحاً ظاهراً لا يحتاج إلى تفسير ولا بيان ، فهو لا يعرف الغموض ولا الالتواء . وكانت عبارة البشرى قصيرة فى أغلب أحوالها ، وكان أسلوبه موجزا ولا سيما فى الخطوات ويطلقون على هذا النوع من الاسلوب (Le style haché) ولنضرب لذلك مثالا ، فالبشرى يقول فى أحمد عبد الوهاب

---

(١) أصول النقد الأدبى . أحمد الشايب ص ٢٤٨ ط ٢ سنة ١٩٤٢

(٢) نقد النثر — قدامة بن جعفر ص ٣٦

(هذا الشباب الناضر ، وهذا الحظ الموانى الحاضر . وهذا الأيد والقوة ، وهذا أسر الفتوة . وهذا الذهن الواضح ، وهذا المنطق الناصح ، وهذه النفس الوضية ، وهذه الشمائل الرضية وهذا النظر البعيد ، وهذا الرأى السديد وهذا العلم والفضل ، وهذه السماحة والنبل ، وهذه الكفاية التى دوت بها السهول والجبـــال وستغنى بها الأجيال بعد الأجيال . . .) (١)

ومن يقرأ هذه الفقرة تبين أن البشرى كان يحرص على قصر العبارة ، كما يحرص على السجع والموسيقى والموافقة بين مخارج الحروف حتى جاءت عبارته أشبه بدور موسيقى جميل .

بل اقرأه يقول :

وهذا الروض الأريض ، لقد انسرح بانه ، وفرعت فروعه ، وبسقت أغصانه ، وزكت أوراقه ، ورف بوحى النسيم نبته ، وتجلجل اصطفاقه ، وأشرقت أنواره ، وتطلعت من أكمامها أزهاره ، فعاجلها الندى وانتشر بين طياتها مثل عيون الدبى . . .) (٢)

ولا شك أنك لمحت فى هذه الفقرة اصطناع البشرى للتلوين الموسيقى دون أن يكون ذلك سجعا ، وتلك ميزة كان يلجأ اليها الجاحظ كثيراً فى أسلوبه واقتفى البشرى أثرها وسار على منوالها .

---

(١) المختار حـ ١ ص ٣٢٣

(٢) المختار حـ ١ ص ٢٤٣

وكان البشرى يستعمل أحياناً كلمات أوربية فى عبارته أو كلمات دخيلة أو ألفاظا عامية مثل (Chacun avec chacune) أو (الشاكينات) على حد تعبيره اليشمق والمعدية والكبارى والنقطة والحنفيات والكمسارى والغازوزه والحلل والماجور وما إلى ذلك. والواقع أن استعمال هذه الألفاظ لم يكن سخيفا ولا سقيما إنما كان يمليه الواقع إملاء ، وتحتمه السخرية من الأوضاع والتهكم على الظروف الموجودة وقد زادت بها الجملة جمالا ولذاعة فى التأثير .

وتلك سنة الجاحظ فى التعبير ، فقد كان الجاحظ لا يتحرج عن استعمال الألفاظ العامية ، والنزول إلى مستوى العامة ، حتى أصبحت كتبه أشبه بدوائر المعارف فى كل علم وفن ولكل طبقة من الناس .

وقد أشار البشرى نفسه إلى هذا فى تمهيد كتابه (المرآة) والواقع أن الجاحظ كان ولوعا إلى حد بعيد باستخدام الألفاظ العامية ولا يتحرج فى سبيل ذلك ولا يجد غضاضة ولا ضيقاً كقوله فى كتاب البخلاء (يا أخى إن ناسا من الناس يغمسون اللقمة إلى أصبارها فى المرى° فأقول هؤلاء قوم يحبون (الملوحة) ولا يعجبون بالحامض فما ألبث أن أرى أحدهم يأخذ جروف الجرذفة فيغمسها فى (الخل الحاذق) ويغرقها فيه .)[1]

وغير ذلك من الأمثلة كثير فى كتب الجاحظ .

---

(١) البخلاء للجاحظ تحقيق على الجارى ص ٤٨ .

الموضوع :

قيل إن الأسلوب هو الموضوع، أو الموضوع (١) هو الأسلوب، ونحن إذا ما طالعنا كتب البشرى ومقالاته وجدناه يتحفنا فى يوم بكلمة فى الرثاء تستدر مذارف الدمع الهتون ، وتهز القلب وتحز فى النفس، ويتحفنا فى يوم آخر بنقد اجتماعى يثير فى نفوسنا الضحك ويبعث فى قلوبنا السرور ويرسم على شفاهنا ابتسامات عريضة ساخرة . حتى إذا ما سأم البشرى من هذا كله كتب مقالا فى الأدب يدل على ثقافته العربية الأصيلة ودراسته الاسلامية العميقة وآرائه النيرة المجددة . وتراه مرة يتكلم فى الموسيقى ومرة يتكلم فى الفن والغناء وطوراً يتكلم فى القرآن والدين والفقهاء وطورا آخر فى السياسة والحرب وغير ذلك من الأحداث والخطوب .

والبشرى أثناء ذلك كله ينقد الأدواء الاجتماعية الفاشية، ويعرض العلل الفاسدة ، ويحاول أن يتلمس لها الدواء . . والعلاج مثله فى ذلك مثل موليير (Molière) على حين أن موليير يتناول موضوعه على هيئة رواية تمثيلية ، بينما البشرى يتناول موضوعه على هيئة مقالة أدبية أو صحفية، وقد اشتهر موليير بالملاهى المضحكة التى تطفح

---

(١) الأسلوب . الأستاذ الشايب ص ١١٤

باللهو والمرح ، وتستخرج الضحكات من أعماق القلوب ، كما اشتهر بلون آخر من الملاهى يسمى الملهاة النفسية ، وتختلف عن الملاهى المضحكة فى أنها تقيم الفكاهة على أساس من الجد وتعمل فى طى نكاتها فكراً رصيناً وتعمل فيها العاطفة بحيث تبلغ حدا قد تتحول عنده الملهاة إلى مأساة من غير وعى المشاهدين وتهدف فى هذا كله إلى غرض تهذيبى مثل ملهاة مدرسة النساء (L'école des Femmes) أو تارتيف (Tartuffe) أودون جوان (Don Juan) أو كاره الانسان (Le Misan Harope) أو البخيل (L' avare) أو النساء العالمات (Les Femmes Savantes) .

وإذا كان موليير قد اشتهر بهذا اللون من الملهاة فقد كانت بعض كتابات البشرى فى نقد المجتمع تتخذ طابع الفكاهة والمرح وتتلون بلون التسلية والتلهية ولكنه كان يكتبها على أساس نفسى عميق ودراسة سيكولوجية تامة حتى أصبحت أشبه بشىء بهذه الملاهى النفسية التى اشتهر بها موليير .

وإذا كان لنا أن نشبه البشرى بكاتب من كتاب المقال فى الأدب الانجليزى ، فإننا نشبهه من حيث الموضوع بالكاتب الانجليزى المفكر فرنسيس بيكون (Francis Bacon) والمقالة عند بيكون مجموعة من الخواطر يسوقها حول موضوع معين بغير أن يعنى بترتيبها ، فليس لها فاتحة يستهل بها الحديث ، وليس لها ختام يشعر بنهايته

إنما هى سلسلة من الخواطر يسوق بعضها بعضا ، وتتخللها أقوال مقتبسة وحكايات يذكرها لتوضيح المعنى ولتأييد وجهة نظره وليس بين هذه الخواطر من رباط إلا أنها تحت عنوان واحد (١) .

وتنقسم مقالاته إلى أربعة أنواع : نوع يدور حول الانسان فى حياته الخاصة ، كمقالاته فى الحب والزواج والعزوبة والآباء والأبناء ، ونوع يدور حول الانسان فى حياته العامة ، كمقالاته فى الرياء والتصنع والمنصب الرفيع ونوع يعالج السياسة كمقالاته فى المال والمستعمرات ، ونوع يبحث فى موضوعات مجددة مثل مقالاته فى الجمال والموت والحق وغير ذلك .

وقد كتب البشرى فى الحب والزواج وعالج مسائله فى أكثر من مقال كمقاله (كيف كان الشباب يزوجون) وعالج عاطفة الآباء والأبناء فى مقاله (أحب أبنائى وأكرههم) وعالج الرياء والتصنع والنفاق فى مقالاته التى كان يكتبها فى السياسة ، كما كتب فى الحرب ، وفى بعث فرنسا العظيمة ، وفى المارشال جرازيانى ، وغير ذلك من الألوان السياسية ، وكتب فى الموت والجمال ، وقد تصدى فى حديثه للموت أثناء تلك العبرات المنثورة التى كان يسكبها على أصحابه وغير أصحابه من رجالات مصر ممن يخطفهم المنون .

---

(١) قصة الأدب فى العالم ج ٢ ص ٢٢٣

أما فن سخريته فى المرآة من الزعماء وأقطاب السياسة فإن أكثر النقاد الصحفيين الفرنسيين والانجليز يلجأون إلى هذا النوع من النقد فى صحفهم السيارة ، وقد لخصت مجلة ريدرز دايجست بعض المقالات التى تمس السياسة فى أوربا مما يشبه نقد البشرى إلى حد بعيد ونشرت الصحيفة الفرنسية (كريسين جرينيه) كتاباً بعنوان (أجازة من سالاز) نقدت فيه الأقطاب الأربعة الكبار (اينهاور وبولجانين وإيدن وفور) نقداً يشبه إلى حد بعيد نقدات البشرى فى المرآة .

وإذا أردنا أن نقارن البشرى فى موضوعاته بكاتب عربى قديم فإننا لانجد أحداً يدانيه مشابه مثل الجاحظ الذى كان يتخذه مثلا أعلى فى الكتابة على النحو الذى بيناه .

ومن أكبر ما تمتاز به كتب الجاحظ أنه يأخذ بيدك ليطلعك على الحياة الاجتماعية ويجعلك تلمسها وتذوقها على قلة الكتاب الذين يعنون بهذه الناحية فإذا أنت قرأت الكامل وأمالى القالى وعيون الأخبار لاتحس فيه شيئاً من ذلك ، ومن أجل ذلك كانت كتب الجاحظ أغزر مصدر لدارس الحياة الاجتماعية . (١)

بل لقد قال فيه المسعودى (وكتب الجـــاحظ مع انحرافه المشهور تجـــلو صدأ الأذهان ، وتكشف واضح البرهان ، لأنه نظمها أحسن نظم ووصفها أحسن وصف ، وكساها من كلامه

---

(١) ضحى الاسلام الجزء الأول ص ٣٨٨

أجزل لفظ ، وكان إذا تخوف ملل القارىء وسأمه السامع خرج من جد إلى هزل ومن حكمة بليغة إلى نادرة ظريفة)(١).

هذا عن عناصر الأسلوب عند البشرى ، أما سمات الأسلوب عند البشرى فهى سمات الأسلوب الجيد من الكتابة وهى القوة والجمال والوضوح.

وسنحاول أن نتحدث بالتفصيل عن كل سمة من هذه السمات الثلاثة حتى نقربها إلى الأذهان :

القوة :

لم يكن البشرى يستعمل الألفاظ الغامضة ولا الألفاظ الحوشية الغريبة إنما كان يستعمل الألفاظ ذوات المعانى المألوفة التى تتعب القارىء فى فهمها وتصيب ذهنه بالكلال والملال . وإذا كان أبو الهلال العسكرى فى كتاب (سر الصناعتين) يقول ليس الشأن فى البلاغة فى إيراد المعانى لأن المعانى يعرفها العربى والعجمى والقروى والبدوى ، وإنما فى جودة اللفظ وصفائه ورونقه وبهائه)(٢) فقد كان البشرى يختار الألفاظ القوية وكان يميل إلى الفخامة فى اللفظ ولاسيما فى الوصف وعند الرثاء وكانت تخريته الحادثة تحمل بين طياتها قوة قاهرة تقطع نياط القلوب .

وكان البشرى من أجل هذه القوة يبهر القارىء باستعمالاته المجازية البارعة فى مجال التخييل والتفكير ، فيعطى للكلام قوة وبلاغة .

---

(١) مروج الذهب ٢ ص ٣٤٤ للمسعودى
(٢) سر الصناعتين ص ٣١ لأبى الهلال العسكرى

وكان يتحاشى الكلمات الضعيفة ويستعمل الايجاز فى بعض الأحيان ولاسيما إذا ما أراد تثبيت معنى فى ذهن القارىء فيأتى اقتضابه كأنه أوامر صارمة تحمل كل معانى القوة فى الأسلوب . ولم يتحرج البشرى من استعمال البديع غير أنه كان يفتن بالمقابلة والسجع والترديد أو المزاوجة فيرسل الجملة كدور موسيقى عنيف صاخب يقرع الأذان قرعا ويصك الأسماع صكا . . .

الجمال :

وإذا كان الجمال السمة الثانية من سمات الأسلوب الجيد على حد تعريف جنتج (١) (Genung) فقد كان البشرى يتوخى دائما الجمال فى أسلوبه، وإذا كان الجمال التعبير عن الاحساس على حد تعبير كروتشه، أو كان الجمال هو الاحساس الذى يصاحب كل خلجة من خلجات الفكر سواء كان ذلك إدراكا أو حكما أو شكا فقد كان البشرى يحسن التعبير عن إحساسه كل الاحسان وكان يغوص إلى أعماق النفس البشرية فى تصويره وتحليله (٢) .

ولم يكن البشرى فى أسلوبه يختار الألفاظ الكزة أو العبارات السقيمة التى تفسد جمال الأسلوب ، إنما كان ينتقى ألفاظه انتقاء

---

(١) الأسلوب للاستاذ الشايب ص ١٩٠

(٢) فلسفة الجمال . ف . جاريت ص ١٣٤

ويختار عباراته اختيارا ، ويلائم بين الألفاظ والمعانى ، وهذه الملاءمة هى سر البلاغة عند القدماء والمحدثين فقال صاحب الصناعتين :

(حسن اللفظ موقوف على جمال المعنى ولا خير فيما أجيد لفظه إذا سخف معناه ، والكلام بسلاسته وسهولته وتخير لفظه وإصابة معناه وجودة مطالعه واستواء تقاسيمه بحيث يكون المنثور مثل المنظوم (مع عدم ضروراته) فى حسن رصفه وتأليفه وكمال صوغه وتركيبه (١) .

وقد كان البشرى كثيرا ما يلجأ إلى مثل هذا النوع من الأسلوب حتى غدت كتاباته أشبه بالشعر المنثور غير أن ذلك ضمه إلى زمرة المنشئين لا الكتاب وشتان بين المنشىء والكاتب .

وكتب أناتول فرانس فى مجلة الطان يقول (كلما أنعمت النظر بدالى أنه لا جميل إلا السهل فقد فرغت من ذوق الغوامض وحرت أرى أن الشاعر أو الأديب الذى لا يعاب هو الذى يتجنب أن يكلف قارئه أى تعب ولو كان هينا وأن يحشمه أية صعوبة ولو كانت طفيفة وخير له أن يفاجىء التفات القراء ولا ينتزعه منهم انتزاعا ، وأن يحذر التعويل على صبر القراء المطلعين وأن يعتقد أنه لا يقرأ إلا إذا كتب سهلا ، فللعلم حق الانتباه والتأمل علينا ، وليس للفنون

---

(١) سر الصناعتين ص ٤٤

ذلك الحق لأنها بطبيعتها تسر ولا تفيد ، ووظيفتها أن تعجب وليس لها وظيفة غير ذلك . . .) (١)

وكان البشرى دائماً يجنح إلى السهولة ، سواء في ألفاظه أو معانيه ، ولا يكلف قراءه شططاً أو مشقة أو عسرا في الفهم ، بل أنه كان كثيراً مايعمد إلى اللغة العاميـــة يستلهمها كثيرا من المعاني ويستوحيها كثيراً من الأمثال .

وقد زادت سخرية البشرى أسلوبه جمالاً ورقة وأكسبته روعة وسحراً على النحو الذى سنفصله في مجال آخر .

وجملة القول إن أسلوب البشرى كان رائعاً جميلا واضحاً قويا في بعض الأحيان حتى اتخذ لقب الكاتب الممتاز ، غير أنه في بعض الأحيان الأخرى كان ولوعاً بالبديع ، نزوعا إلى تقليد الأسلوب القديم مغرما بالسجع والمحسنات اللفظية حتى عد من المنشئين .

وينبغي أن نفرق هنا بين الكاتب والمنشىء .

والفرق بين الكاتب والمنشىء أن الكاتب إنسان قبل أن يكون حامل قلم ، وصانع كلام ، وفضيلته فضيلة نفس شاعرة مدركة لا فضيلة لسان وعبارة . والكاتب جماله في الأسلوب جمال المعدن الصحيح لا جمال الزيف والطلاء . . .

---

(١) مراجعاته في الأدب ص ٩٠

يذكرك دائماً بالطبيعة الصادقة واللباب المكنون ، أما المنشىء فتقرؤه ، كأنما تشعر بالقشرة المطلية تحت يدك ، ويؤتى اليك أنه يخدعك ويحاول أن يبيعك الشيء الزهيد الذى تراه فى كل مكان باسم غير اسمه ، وقيمة غير قيمته ، فأنت تبصر فيه لون المعدن ، ولا تسمع رنته ، وتدرك ثقله ، وهو ليس كالكاتب صاحب رسالة إنما هو صاحب زينة يسرك أن تنظر اليها وتجرى يدك عليها وتفقدها كلها إذا أردت أن تنقلها من لغتها التى كتبت فيها إلى لغة أخرى (١) .

إذن فقد كان البشرى كاتباً فى بعض الأحيان ومنشئاً فى الأحيان الأخرى . كان أسلوبه وموضوعه يتجه إلى فرنسيس بيكون أو موليير مرة ويتجه إلى أوسكار وايلد أو تيوفيل جوتيه مرة أخرى . يحاكى الأولين فى استرسالهم ونقدهم وسخريتهم ، ويحاكى الآخرين فى تصنعهم وافتعالهم وتأنقهم . . .

الموضوع :

لم يكن البشرى يعرف الغموض فى المعنى ، ولا الابهام فى التعبير ، إنما كان واضح العبارة ، مشرق الأسلوب يكثر من الأمثلة المتنوعة من الحديث والقديم ، ويتحرى البساطة فى صوغ العبارات ، ويجانب التعقيد أو الالتواء ، ويستخدم العناصر الشارحة فى الأسلوب

---

(١) مراجعات فى الأدب ص ١٧٥

ويكيف أفكاره في وضوح وجلاء ، وقد يضطره ظرفه إلى استخدام المصطلحات الأوربية لبيان نظائرها في الاصطلاح العربي ابتغاء الشرح والتحليل والتفسير ، ويوجز في مقام الإيجاز ، كما يسهب ويطنب في مقام الإسهاب والاطناب ، وينحو نحو أناتول فرانس في الوضوح والجلاء والبساطة ، وهذه البساطة هي التي دعت الأستاذ (لودفيك هليفي) (١) إلى أن يقول إن الأسلوب البسيط السلس هو وحده الذي يعبر السنين محتفظا بقيمته وحيويته .

فالوضوح عامل رئيسي من عوامل تكوين المقالة وقد كان مونتي (Montaigne) يراعي دائما . الوضوح في مقالاته ويقول إني أتحدث إلى القرطاس كما أحدث أول رجل أصادفه . ونشر في مقالاته دخائل نفسه ووقائعها تلك الدقائق التي لا ينفذ اليها إلا كل أديب ثاقب النظر ، ويميط اللثام عنها ويعرضها لنا في جلاء ووضوح .

وقد كان البشري من هذا النوع يقول لنفسه ما يقوله مونتي (Montaigne) لنفسه (أنا الحقيقة) ويصور لنا الحقيقة سافرة ويلذعها بمقالاته الساخرة فينزع منا الإعجاب والتقدير .

وفعل البشري هذا في فترة من تاريخ الأدب في مصر كان كثير من الأدباء المصريون فيها يميلون إلى التعقيد ويعجبون

---

(١) حديقة أبيقور . أناتول فرانس ص ٧٤

بتلك المذاهب الفنية التى ظهرت فى فرنسا وأوربا على يدى رامبو وفرلين وملارميه وغيرهم من الأدباء الرمزيين فى فرنسا وإدجار الن بو وأضرابه فى أمريكا. وغاية هذه الدعوى التخلص من الوضوح لأن بالوضوح حظر الملل، وخير للقارىء أن يكتشف السر الذى يشتمل النص عليه من أن ينكشف السر من تلقاء نفسه، ولذلك بدلوا الترتيب المنطقى واستعاضوا عنه بالألفاظ الصورية المتحركة النورانية، وتعمدوا الظلال لا الألوان ولا الأضواء، ولم يشرحوا بل أومئوا. ويعد مصطفى صادق الرافعى فى طائفة كبيرة من نثره من أتباع هذا المذهب الغريب.

أقول فعل البشرى هذا فى فترة عكف فيها الأدباء على المذاهب الأوربية الحديثة وحاولوا السير على منوالها حتى أن مالا رميه كان يقول: تسميه الشىء تفقده ثلاثة أرباع قيمته [1].

وما كان أخلق بالرافعى وأترابه أن يقولوا مثل هذا القول فى السحاب الأحمر أو رسائل الأحزان أو غيرهما.

(١) Thibaudet La Poesie de S. Mallarmé P. 109.

خاتمة

تلخيص البحث

يحق لنا بعد هذا العرض العلمي للبحث أن نلخصه ونُدوِّن النتائج التي وصلنا إليها، والواقع أن فصلاً كهذا لا يمكن أن يفي البشري حقه وأن يناسب خصوبة أدبه، وعظم إنتاجه الفكري.

ومهما يكن من شيء فقد كان البشري أديبا مصرياً بأدق معاني هذه الكلمة وأوسع مدلولات هذا اللفظ. وإذا كنا في هذا العصر الحديث نطمح إلى أدب جديد يصور نفسياتنا ويعبر عن خوالج نفوسنا ونبضات قلوبنا وتقاليد مجتمعنا فما علينا إلا أن ندرس أدب البشري لأنه كان صورة من هذا كله ومرآة لهذا كله... كان صورة واضحة مبينة.. وكان مرآة مجلوة ناصعة... هيهات أن تدركها يد البلى... أو تعبث بها... أصابع الزمان...!!

أدب البشري أدب الناس جميعاً. يجد فيه صاحب الثقافة الدينية لذة ومتعة لأنه يشتمل على عناصر إسلامية بارزة. ويجد فيه صاحب الثقافة الأوربية لذة ومتعة لأنه يجد فيه صورة من وصف المجتمع

ونقده تشبه إلى حد بعيد تلك الصور التي يعطيها كتاب الغرب في فرنسا وانجلترا لمجتمعهم الذي يعيشون فيه مع الفارق بين التقاليد والعادات والمعتقدات ، كما يجد فيه أسلوباً ساخراً ساحراً يرفعه إلى مصاف الأساليب الساخرة السافرة في الأدب الفرنسي أو الأدب الإنجليزي ، ويجد فيه شجاعة وجرأة قلما يجدها عند غيره من الكتاب فهو لا يهاب العظيم مهما كانت عظمته ، ولا يهاب صاحب السلطان مهما كان سلطانه ، ويقول له إن أخطأ إنه أخطأ ، ولا يخاف في ذلك لومة لائم. وليس أدل على ذلك من نقده الصارم لزيور وهو على رأس الوزارة المصرية وقتذاك !! . . .

يجد فيه صاحب الثقافة الأوربية هذه الشجاعة والجرأة التي تمثلت في كتاب الثورة في فرنسا وغيرها من بلدان أوربا الحرة والشرق العربي . . .

ويجد فيه بعد هذا دارس الأدب الشعبي لذة ومتعة لما فيه من صور شعبية لأبناء البلد والأفندي وليالي رمضان وما إلى ذلك من موضوعات شعبية طريفة وما فيه من نكات عذبة و (قفشات) لطيفة تستهوي القلوب استهواء .

ولعل أميز ما يميز أدب البشري سخريته وتهكمه . . . وصوره الفكهة المستملحة ، وطرائفه ونوادره التي أضافت إلى الأدب العربي الفصيح والأدب الشعبي ثروة كبيرة وذخيرة عظيمة . .

ولقد حللت سخرية البشرى تحليلا دقيقا، وعقدت المقارنات بينه وبين كتاب الغرب وخرجت من ذلك بنتيجة واضحة، وهى أن السخرية عند البشرى لم تكن فى الحكمة ولا فى سرد القصة، إنما كانت فى عرض المقال الساخر، وسوق النقد اللاذع، سواء كان هذا النقد موجهاً إلى المجتمع وتقاليده العتيقة، أم موجها إلى الأشخاص وتصرفاتهم السديدة أو الحمقاء . . !

وهذه السخرية تلحق البشرى بأقطاب الكتاب فى العصر الحديث فإذا كانت فرنسا تفخر بفولتير وإذا كانت انجلترا تفخر بشو وإذا كانت أمريكا تفخر بمارك توين فان مصر تفخر بالبشرى.

ومما زاد من منزلة البشرى تلك النكات والطرائف المأثورة عنه التى حاولنا أن ندرسها على ضوء علم النفس الحديث وعلى ضوء تعريفه هو للنكتة لندرك نصيبها من الجمال وحظها من الروعة .

ولاحظنا أثناء هذا البحث مدى تأثر البشرى بمن سبقه من الأدباء العرب والمصريين فى ذلك كله مثل الجاحظ الكاتب العربى المتفنن وصاحب التلوين الصوتى والمعنوى الرائع والسخرية العذبة الخلابة وابراهيم المويلحى ونجله فى مصباح الشرق حيث كان المويلحى الكبير يبث نقداته اللاذعة . . وضرباته الصادعة . . . !!

وقد بينا مكانة البشرى بين أدباء العصر الحديث وذكرنا مدى

تأثره بالمنفلوطى والرافعى أو اقتباسه منهما ومدى إعجابه بهذا الأسلوب أو ذاك ..!

وقد قرأت فى إحدى مقالات البشرى إشارة إلى أنه كان يقول الشعر ولكنى بعد البحث و التنقيب لم أستطع العثور على شعر البشرى اللهم إلا على قصيدة نشرها فى الرسالة عام ١٩٣٤

ومهما يكن من شىء فإن قيمة البشرى الأدبية لا ترجع إلى أنه شاعر، إنما ترجع إلى كونه كاتباً بليغاً وأديباً بارعا وصاحب مقالة أدبية قبل أن يكون صاحب مقالة صحفية لأن نزعة الأدب كانت تسيطر عليه وتكاد تطغى على غيرها من الملكات والمواهب ...!

أثر البشرى فى الادباء :

هذا وحاول كثير من الكتاب اقتفاء آثار البشرى سواء شعروا بذلك أم لم يشعروا ، وسواء عمدوا إلى ذلك أم لم يعمدوا، مثل الأستاذ فكرى أباظه الذى سألته عن أثر البشرى فى أسلوبه فقال : إنه كان يعجب أشد الاعجاب بمقالات البشرى فى السياسة الأسبوعية التى جمعت فيما بعد فى كتاب (فى المرآة) وأنه لا ينكر تأثره بأسلوبه الفكه الساخر .

وهاهو ذا فكرى أباظة يتناول شخصية محمد محمود فيقول (١):

(إنه له نظرة صفراء . . . إذا غضب تتجمع فيه كل ألوان السخط والمرارة والاحتقار والثأر . . . والرجل نبيل بكل معانى النبل ، نزيه بكل معانى النزاهة والجبروت وحده . . . وما تلا الجبروت من آثار قد أصبح فى ذمة التاريخ فلنسدل عليه الستار .

ومن دراسى التحليل النفسانى لسكان الصعيد (الجوانى) يستنتج القراء بسهولة أن من مواليد هذه الجهات (العناد) العنيف من الذكور و (الرؤوس الناشفة) من الإناث .

وهاهو ذا يتناول شخصية أحمد حسنين فيقول (٢) تحت عنوان الكسم (لا أدرى لماذا لا يستعمل الناس هذا اللفظ الجميل البليغ وهو فى عصرنا الحاضر جدير بكثرة الاستعمال ولا أعلم ما رأى مجمع اللغة العربية فى فصاحته ودقته وروعته .

فلان كسمة جميل ، والكسم هنا يتناول القوام والقد والطلعة والزى وكل شىء . وفى اعتقادى أن كسم الانسان له أثره الرائع وتأثيره البليغ فى حياة الانسان .

الوجه الجميل ، والجسم الجميل ، والقوام الجميل ، كلها عناصر توحى بالخلال الجميلة ، وتنم عن العواطف النبيلة .

---

(١) الهلال ١٩٣٧ ص ٦٣٤

(٢) الهلال ١٩٣٧ ص ١٠٤

كل هذا توفر فى أحمد حسنين طفلا .. وصبياً وفتى .. وشاباً وكهلا .. وشيخا إن شاء الله ..)

ففكرى أباظة فى هذا الأسلوب متأثر كل التأثر بأسلوب البشرى ففيه هذه الأحوال المتكررة المتعددة التى نجدها فى أسلوب البشرى وفيه هذه الكلمات العامية أو الجمل العامية التى نجدها عند البشرى وفيه هذه الروح المرحة الخفيفة التى تتمثل فى أسلوب البشرى ، غير أن فكرى أباظة يمتاز بالتكرار ، تكرار الألفاظ وتكرار الجمل وتكرار المعنى فى بعض الأحيان وتلك خصلة سلم منها البشرى كما أن البشرى يمتاز بالكاريكاتير وهذه ميزة حاول فكرى أباظة أن يأخذ منها بنصيب .

ولكن أثر البشرى لم يقف عند فكرى أباظه فحسب ، إنما امتد إلى غيره من الكتاب والمنشئين أذكر منهم الأستاذ الفنان صالح جودت الذى يكتب سلسلة عن أهل الفن فى المرآة فى مجلة الكواكب التى تصدر عن دار الهلال ولا يقل اهتمام أهل الفن بهذه المقالات عن اهتمام الساسة والقادة بمقالات البشرى . وكل فنان ينتظر دوره فى مرآة صالح جودت كما كان ينتظر السياسى دوره فى مرآة عبد العزيز البشرى .

تأمل ما يقوله صالح جودت فى المطربة (ملك) [1] :

---

(١) الكواكب ١٣ يناير ١٩٥٣ ص ٥

(لست أعرف من الذى سماها مطربة العواطف؟ ولكنى أعرف أن أمير الشعراء شوقى سماها يوما (حلوة الوعد) وقال فيها قصيدة من عيون شعره .

يا حلوة الوعد ما أنساك ميعادى
عن الهوى أم كلام الشامت العادى

وقد كان أمير الشعراء رحمه الله فناناً عميق الحس وكان يهتز للصوت الحلو العميق ، ولاعجب فقد تميز شعره على غيره من الشعراء بموسيقاه، وقد يختلف النقاد فى المفاضلة بين شعره وشعر غيره من الفحول كالمتنبى وابن الرومى من ناحية المعانى والأخيلة ، ولكنهم لا يختلفون أبداً فى أن الموسيقى فى شعره أعظم من موسيقاهم جميعا حتى لقد قال فيه كاتب كبير : (لو أن شوقى لم يؤت بموهبة الشعر لكان أعظم موسيقى فى عصره ... فلا بد أن يكون صوتها قد وصل إلى أعماقه وهز أوتار عاطفته التى شدت بمثل هذه القصيدة الفذة التى يحسدها عليها كثير من أهل الفن) .

ثم تأمل ما يقوله فى زكى طليمات(١) :

(... رجل يحب الدنيا ... ويقول علماء النفس إن حب الدنيا هو أكبر حافز للمرء على الكفاح وأقوى وسيلة للنجاح ..

---

(١) الكواكب ١ يوليو ١٩٥٢ ص ٧

وبهذا استطاع زكى طليمات أن يخرج من وراء قضبان حديقة الحيوانات إلى مدينة النور والفن . . . باريس ليتتلمذ على يد أستاذه العظيم نيس ويعود لمصر ليكافح .

ليكافح رجالا عمالقة أراد أن يطفىء أسماءهم ليتألق اسمه . . !

ليكافح جبالا أراد أن يبسطها لتصبح سهولا ممهدة يسير عليها دون أن تجرح قدماه . وفاته أن يدرك أنه بهذا الكفاح ضد العمالقة والجبال إنما أضاع شطراً من عمره . . . وشطراً من طاقته فى سبيل غاية كان يمكن له أن يصل إليها بأنعم الأساليب . . مستعيناً بأيدى هؤلاء العمالقة من الرجال . . بانياً مجده فوق رؤوس هذه الجبال . . !)

ثم تأمل ما يقوله فى المطربة (شادية)[1]:

. . . تذكرنى هذه الطفلة الحلوة دائما بعروسة المولد بما فيها من رقة وعذوبة وحلاوة وبراءة . وبما فيها من شىء يبعث على الحنو فأنت إذ تتطلع إليها تراها . . تبدو لك . . كعروسة المولد تماماً — كأنها قطعة من الحلوى الشهية . . التى يصعب عليك أن تأكلها . وتشعر نحوها بعاطفة من الحنان البالغ الذى يحملك على أن تقيم نفسك حارساً حفيظا وأميناً عليها . . وتحس أنك تريد

---

(١) الكواكب ٢٣ ديسمبر ١٩٥٢ ص ٥

أن تبقيها أمامك لتمتع بها روحك . وعينيك . دون أن تدنى منها يديك . . . !)

وأخيراً تأمل ما يقوله فى محمد كريم المخرج السينمائى(١) .

وهو (نمـــكى) كما يقول أولاد البلد . يدقق فى كل صغيرة وكبيرة . وأذكر مرة أنه دوخ نفسه بين المحلات التجارية الكبرى يوما كاملا لينتقى لإحدى بطلاته (شنطة يد) تظهر بها فى مشهد يتجاوز عشرين ثانية . لأن هذة الحقيبة المعينة ذات شكل ترتاح له عين المتفرج .

فمن هذه الأمثلة جميعاً تلاحظ أن الأستاذ صالح جودت ينحو منحى الأستاذ البشرى فى التعبير . فهو يعتمد فى تحليله للشخصيات على سرد القصص والنوادر الطريفة على النمط الذى كان يلجأ إليه البشرى ، وهو يعتمد على التحليل الكاريكاتورى كما هو الحال فى تصويره لشادية (بعروسة المولد) وهذه الوسيلة فى التعبير كانت وسيلة البشرى دائما لايحيد عنها ولا يرجو منها خلاصاً ، وهو يلجأ إلى الألفاظ العامية خلال تحليله على النحو الذى كان يلجأ إليـــه البشرى وهو يمزج السخرية بالعطف مثله ، وهـــذه أرقى أنواع السخرية على حد تعبير الكاتب الكبير عباس محمود العقاد .

(وخير هذه الملكات وأعلاها ملكة السخر يمازجها العطف

---

(١) الكواكب ٢٨ اكتوبر ١٩٥٢

وهى عبقرية لا تقل فى اقتدارها على تجميل الحياة ، وتثقيف النفوس والأذواق عن عبقرية الفلسفة . . وعبقرية الشـــعر والتلحين . . !) (١)

وقد تمثلت هذه الظاهرة بشكل واضح ملموس فى وصف صالح جودت لمحمد كريم وتشبيهه تارة باللابيين أهل لابلاند الواقعة فى شمال السويد عند حدود القطب الشمالى الذين إذا رأوا أحدا من أهل الأرض مقبلا نحوهم لاذوا بالفرار واختفوا فى أوكارهم الثلجية ، وتارة بالأرنب الذى يختفى فى بطن الأرض . .

فهذه سخرية ليس فيها شك ، ولكن صالح جودت لا يترك للقارىء هذه الصورة دون تنقيح أو تصحيح ودون تعديل أو تجميل فيمزج العطف بها مزجا ويرضى الانسان عن نقائص الانسان ويضحكه كما يرضى الوالد الشفيق عن جهل وليده الصغير (٢).

ولا يلبث أن يقول : (ولكن كريما . . . لا يهرب من الناس عن جبن بل عن زهد . . . نسميه باللغة الدارجة «قرف» . . وابتعاد عن المتاعب . . .) (٣)

فمن هنا جاء التخفيف . . . وجاء العطف . . . بعد السخرية . . !

وكان البشرى فى مرآته نزوعا إلى هذا المنزع . . . جنوحا إلى

---

(١) ساعات بين الكتب لعباس محمود العقاد ص ١٥٣ ط ١٩٥٠

(٢) نفس المرجع السابق .

(٣) الكواكب ٢٨ أكتوبر ١٩٥٢ ص ٧

هذه الوسيلة . . . يسخر ثم لا يلبث أن يعطف . . . يجرح ثم لا يلبث أن يخفف ويكفى أن نضرب على ذلك سخريته من زيور باشا وهو رئيس للوزارة المصرية .

(ولقد تعلم أحيانا عن زيور باشا حرصه على مصالح الدولة على أنك إذا عاتبته على إسراف الحكومة فى عهده وابتذالها لأموال الدولة بهذا الأسلوب الفادح أجاب من فوره . . . إن مصر غنية (L'Egypé est riche.) [1] . . . ! ! !

وهكذا وجدنا فكرى أباظه وصالح جودت يتخذان أسلوب البشرى فى مرآته وأكبر الظن أننا سنجد غيرهما على مر الأيام ونجد أدب البشرى نبعاً فياضا وعينا ثرة دفاقة ينهل منها الكتاب والأدباء والمتأدبون فى هذا العصر الحديث . . .

---

(١) المرآة للبشرى ص ٩

المراجع الأفرنجية

1. Encyclopaedia Americanna
2. « « Britannica
3. La grande Encyclopedie
4. Freud. Sigmond : Wit and its relation to the unconscious.
5. Hazlitt. Carew : Jests new and old.
6. Hollander : Mechanism of Hought.
7. Hunt. Leigh : Wit and humour.
8. Johnson. Edgar : A treasury of Satire.
9. Larousse . . . . .
10. Laufers. Paul : Au Pays du Christ.
11. Litterature Francaise.
12. Pearson. H. Osca Wilde, Life and wits.
13. Thibaudet : La poesie de Mallarmé.

obeikandl.com

المراجع العربية

١ — إبراهيم عبده : تطور الصحافة المصرية .
٢ — الابشيهى : المستطرف فى كل فن مستطرف .
٣ — ابن عبد ربه : العقد الفريد .
٤ — ابن منظور : لسان العرب .
٥ — أبو الهلال العسكرى : سر الصناعتين .
٦ — أحمد أمين : ضحى الاسلام ج ١ .
٧ — أحمد أمين : النقد الأدبى جزآن .
٨ — أحمد أمين وزكى نجيب محمود : قصة الأدب فى العالم ج ٢
٩ — أحمد سويلم العمرى : السياسة ونظم الحكم .
١٠ — أحمد الشايب : أصول النقد الأدبى .
١١ — أحمد الشايب : الأسلوب .
١٢ — أحمد شوقى : الشوقيات (أربعة أجزاء)
١٣ — أحمد عبد الفتاح بدير : الأمير أحمد فؤاد ونشأة الجامعة .
١٤ — أحمد عطية الله : سيكولوجية الضحك .
١٥ — إسماعيل أدهم : توفيق الحكيم .

obeikandl.com

١٦ ـ أمين الخولى : البلاغة وعلم النفس .
١٧ ـ أمين الخولى : تصير البلاغة .
١٨ ـ أمين الخولى : فى الأدب المصرى .
١٩ ـ أمين الخولى : فن القول .
٢٠ ـ أناتول فرانس . حديقة أبيقور ـ ترجمة عبد الحليم محمود .
٢١ ـ أنيس المقدسى : الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث .
٢٢ ـ برجسون : الضحك ـ تعريب سامى الدروبى .
٢٣ ـ جاريت : فلسفة الجمال تعريب عبد الحميد يونس .
٢٤ ـ الجاحظ : البخلاء .
٢٥ ـ الجاحظ : رسائل الجاحظ ط . ساسى .
٢٦ ـ حافظ إبراهيم : ديوان حافظ إبراهيم ـ جزآن .
٢٧ ـ دوهاميل : دفاع عن الأدب . تعريب الدكتور محمد مندور .
٢٨ ـ زكى نجيب محمود : جنة العبيط أو أدب المقالة الصحفية .
٢٩ ـ زكى نجيب محمود : شروق من الغرب .
٣٠ ـ سامى الدروبى : الضحك لبرجسون (تعريب) .
٣١ ـ سيد قطب : النقد الأدبى .
٣٢ ـ شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى الشعر العربى .
٣٣ ـ شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى النثر العربى .
٣٤ ـ طاهر الطناحى : ألحان الغروب .
٣٥ ـ طه حسين : مستقبل الثقافة فى مصر (جزآن) .

obeikandl.com

٣٦ ـ عباس محمود العقاد : ساعات بين الكتب (جزآن) ط ١٩٥٠
٣٧ ـ عباس محمود العقاد : مراجعات فى الأدب .
٣٨ ـ عبد العزيز البشرى : التربية الوطنية .
٣٩ ـ عبد العزيز البشرى : المختار . . . (جزآن) .
٤٠ ـ عبد العزيز البشرى : المرآة .
٤١ ـ عبد العزيز البشرى : قطوف (جزآن) .
٤٢ ـ عبد الحميد يونس : الأزهر .
٤٣ ـ عبد الحميد يونس : فلسفة الجمال (تعريب) .
٤٤ ـ عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية فى مصر (أربعة أجزاء) .
٤٥ ـ عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر .
٤٦ ـ قدامة بن جعفر : نقد النثر .
٤٧ ـ القيروانى : زهر الآداب .
٤٨ ـ لانسون : منهج البحث فى الأدب واللغة
ترجمة الدكتور محمد مندور .
٤٩ ـ محمد حسين هيكل : فى أوقات الفراغ .
٥٠ ـ محمد حسين هيكل : مذكرات هيكل .
٥١ ـ محمد كامل حسين : أدب مصر الاسلامية .
٥٢ ـ محمد مندور : منهج البحث فى الأدب واللغة (تعريب) .
٥٣ ـ محمد مندور : فى الأدب والنقد .

٥٤ ـ محمد المويلحي : حديث عيسى بن هشام .
٥٥ ـ محمود حامد شوكت : المسرحية فى شعر شوقى
٥٦ ـ مصطفى صادق الرافعى : أوراق الورد .
٥٧ ـ مصطفى صادق الرافعى : رسائل الأحزان .
٥٨ ـ مصطفى صادق الرافعى : من وحى القلم .
٥٩ ـ مصطفى لطفى المنفلوطى : النظرات .
٦٠ ـ مصطفى لطفى المنفلوطى : العبرات .
٦١ ـ مصطفى لطفى المنفلوطى : ماجدولين .
٦٢ ـ المسعودى : مروج الذهب .
٦٣ ـ النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب .

الدوريات

١ ـ أخبار اليوم عام ١٩٤٦
٢ ـ الأهرام عام ١٩١٧ ، ١٩٢٣ ، ١٩٣٣
٣ ـ البلاغ عام ١٩٣٠
٤ ـ الثقافة مجموعة كاملة
٥ ـ الجريدة عام ١٩١٠ ، ١٩١١ ، ١٩١٢
٦ ـ الجهاد عام ١٩٣٤
٧ ـ الرسالة مجموعة كاملة
٨ ـ الزهراء عام ١٣٤٤ هـ
٩ ـ السياسة اليومية عام ١٩٢٥ ، ١٩٢٦
١٠ ـ السياسة الأسبوعية عام ١٩٢٩
١١ ـ الشئون الاجتماعية عام ١٩٤٤
١٢ ـ الظاهر عام ١٩٠٣ ، ١٩٠٤ ، ١٩٢٩
١٣ ـ علم النفس عام ١٩٤٧ ، ١٩٤٨
١٤ ـ الكتاب عام ١٩٤٥
١٥ ـ الكشكول مجموعة كاملة
١٦ ـ كلية الآداب عام ١٩٣٤
١٧ ـ الكواكب عام ١٩٥٢ ، ١٩٥٣
١٨ ـ اللطائف المصورة عام ١٩١٧
١٩ ـ المساء عام ١٩٣٠
٢٠ ـ المصرى ١٩٣٦ ، ١٩٥٣
٢١ ـ المقتطف عام ١٩٢٨

obeikandl.com

الملفات والتقارير

١ — ملف الخدمة فى وزارة المالية .

٢ — ملف الخدمة فى المجمع اللغوى .

٣ — محضر جلسات المجمع اللغوى عام ١٩٤٣ .

٤ — تقرير الدكتور خليل عبد الخالق عام ١٩٤٤